الإسلام والعقل الحديث

الطبعة الأولى
١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

الناشر : دار نوبل للنشر والتوزيع
٤ شارع سيد الخطيب - الثلاثيني العمرانية الغربية - الجيزة .
ت : ٠١٢٠٣٢٠٩٠٥ - ٠١١٥٩٦٠٥٠٧١

سلسلة الإسلام وتحديات العصر الحديث

الإسلام والعقل الحديث

محمد يونس هاشم

دار نوبل للنشر والتوزيع

سلسلة الإسلام وتحديات العصر الحديث
الكتاب : الإسلام والعقل الحديث .
المؤلف : محمد يونس هاشم
الناشر : دار نوبل للنشر والتوزيع ٤ شارع سيد الخطيب – الثلاثيني العمرانية الغربية – الجيزة .
ت : ٠١٢٠٣٢٠٩٠٥ – ٠١١٥٩٦٠٥٠٧١
الطبعة : ٢٠١٩
رقم الإيداع : ١٥٥٥٣
الترقيم الدولي : 978- 977- 5648- 97-6

الهيئة العامة للكتاب
الفهرسة أثناء النشر

هاشم ، محمد يونس
الإسلام والعقل الحديث ، محمد يونس هاشم ، الجيزة دار نوبل للنشر والتوزيع ٢٠١٩
ص ١٥٤ – ١٧ × ٢٤ سم
رقم الإيداع : ١٥٥٥٣
١- دراسات
٢- العنوان
ديوي ٢١٤.٥

المقدمة

العقـل هـو مـا يكـون بـه التفكيـرُ والاسـتدلالُ وتركيـبُ التـصوُّرات والتصديقات ، وهو يحتاج إلى المعرفة ، والعلم ، وكشف المجهول ، والإبداع ، والاهتداء إلى حقائق الأشياء .

وموقف كل أمة من العقل هو سبب تقدُّمها وتخلُّفها ، وسبب سعادتها وشقائها .

والعقل في العصر الحديث يمر بأزمة في الغرب ، والشرق ؛ فالعقل الغربي أو العقل الأوروبي / الأمريكي إن كان قد استطاع أن ينتصر على الطبيعة ويسخرها فإنه لم يصل إلى حد القناعة والرضا ، وإن كان قد تحرَّر من رِبْقَة الكنيسة ورجال الدين ومن رِبْقَة الإقطاع فإنه أصبح عبداً للآلة والتكنولوجيا أو عبداً لمن يملكهما ويرسم أهداف استثمارهما، والعقل الغربي إن أصبح قادراً على حل مشاكله المادية فإنه عجز عن حل مشكلة الإنسان حين تحدق به الشدائد ، وإن تحوَّل من نعيم المسيحية الغيبي في السماء بعد الموت فإنه لم يصل إلى النعيم العقلاني الطبيعي على هذه الأرض.

إن أزمة العقل الغربي في العصر الحديث تكمن في طغيان الجانب المادي على حياته ، واعتماده الكلي على العلم والتكنولوجيا ، وإهماله لدين الله وأخلاقه ، الذي هو غذاء الروح التي هي نفخة من روح الله وتحتاج إلى معرفته تعالى وعبادته العبادة الصحيحة وحسن الخلق والعمل الصالح ، وإذا لم تُشْبع الروح هذه الأمور أتعست صاحبها مهما كان حظه من نعيم الدنيا ، فنعيم الدنيا قد يسدُّ جوع جسد الإنسان نَعَمْ ،

لكنه أبداً لن يسدَّ جوع روحه فلا غرو أن تجد أولئك الذين أهملوا غذاء أرواحهم تائهين لا يعلمون من هم ؟ ومن الذي أتى بهم في هذا العالم ؟ وما هدفهم في هذه الحياة ؟ وماذا بعد الموت ؟ أزمة العقل العربي الحديث

أما أزمة العقل العربي

في أن المسلمين تتنازعهم نزعتان بالنسبة لطريق النهضة والتقدم : نزعة النصِّيين الحرفيين الاسترجاعية ، ونزعة العلمانية التغريبية .

أما النصِّيون الحرفيون الذين نعنيهم فهم أولئك النفر الذين لم يفهموا خصائص هذا الدين الحنيف الشاملة الوسطية الواقعية إنما فهموا الدين على إنه بعض النصوص المجتزأة التي يفسرونها تفسيراً حرفيا بعيداً عن مقاصد الشريعة ، وفقه الواقع ولا علاقة لهذه النصوص المجتزأة ، في الغالب ، بالعلم الصحيح ولا بالعقل الصريح ، ولا بالواقع المعيش !

إن هؤلاء النصِّيين الحرفيين يقفون بالعلم الديني عند أقوال بعض علماء السلف يكرِّرونها دون فهم لمنهجهم الفكري ، والعملي ، أما مفهوم العلوم الحديثة والتقنيات المتقدمة عند هؤلاء النصِّيين الحرفيين فهي من بدع الكفرة الفجرة ، ولا بأس من الاستفادة بالمخترعات النافعة أما الانشغال بهذه العلوم فإن لم يكن حراما فعلى الأقل خلاف الأولى . مما أوقع الناس في الحرج مع أن رفع الحرج عن الناس من مقاصد الشريعة الغراء .

أما العلمانيون التغريبيون فعلى النقيض من النصِّيين الحرفيين ؛ فإذا كان النصِّيون الحرفيون يرمون الدنيا والعقل وراء ظهورهم فإن العلمانيين من الماركسيين والوجوديين والماديين .. يرمون الدين وراء ظهورهم ،

وإذا كان النصِّيون الحرفيون يقدسون بعض كتب السالفين فإن المثقفين العلمانيين يقدسون كتب دارون ، ونيتشة ، وماركس ، وساتر ، وفرويد...

والخلاصة إن كان النصِّيون الحرفيون ييممون وجوههم قِبَل القديم ويعتبرون أن كل فهم جديد للدين بدعة ضالة وأن الوقوف عند حدود ما أبدعه السالفون نجاة ؛ وأن السابق لم يترك للاحق شيئاً .

فإن العلمانيين التغريبيين ييممون وجوههم قِبَل الغرب ويعتبرون كل فهم قديم للدين تخلف ورجعية وأنه لا إيمان إلا بما يقوله العلم – المادي – والحكمة تقضي – في نظرهم – بأن نأخذ من الغرب فلسفته وفنونه وآدابه كما نأخذ علمه ومخترعاته أن نأخذ أفكار دارون ، ونيتشة ، وماركس ، سارتر ، وفرويد ... كما نأخذ علوم جاليليو ونيوتن وأيشتين ومندل ...

وإذا كانت حجة النصِّيين الحرفيين أن المسلمين ما وصلوا إلى ما وصلوا إليه في أزهى عصورهم إلا بفضل تمسكهم بالدين ، واعتقادهم أن التمسك بأقوال وآراء بعض السلف سيحقق لهم ما تحقق لأسلافهم من ظهور على سائر الأمم . فإن العلمانيين يقولون إن أوربا ما تقدمت إلا بعدما طرحت الدين وراء ظهرها وأخذت في أسباب العلم المادي .

وهذا الكتاب يسعى لمحاولة مناقشة أزمة العقل الغربي اللاديني والعربي الإسلامي من خلال التدبر في النصوص الدينية والمعطيات الحضارية .

***

العقل الغربي في العصر الحديث

تعريف العقل

العقل في اللغة : أَدرك الأشياء على حقيقتها ، والعقل ما يكون به التفكيرُ والاستدلالُ وتركيبُ التصوُّرات والتصديقات ، والعَقْلُ ما به يتميز الحسَنُ من القبيح ، والخيرُ من الشر ، والحق من الباطل. (١)

وعند علماء العربية ، العَقْلُ : العِلْمُ بِصفاتِ الأَشْياءِ ، من حُسْنِها وقُبْحِها، وكَمَالِها ونُقْصانِها ، أو العِلْمُ بخَيْرِ الخَيْرَيْن ، وشَرِّ الشَّرَّيْنِ ، ويكونُ بمُقَدِّماتٍ يَسْتَتِبُّ بها الأَغْراضُ والمصالِحُ ، ولهَيْئَةٍ مَحْمودةٍ للإِنْسانِ في حَرَكاتِهِ وكَلامِهِ . والحَقُّ أنه نورٌ روحانِي ، به تُدْرِكُ النفسُ العلومَ الضَّرورِيَّةَ والنَّظَرِيَّةَ. وابْتِداءُ وجودِه عند اجْتِنانِ الوَلَدِ، ثم لا يَزالُ يَنْمو إلى أن يَكْمُلَ عند البُلوغِ . (٢)

والعقل عند الفلاسفة هو بوجه عام ما يُميَز به الحق من الباطل والصواب من الخطأ ، ويطلق على أسمى صور العمليات الذهنية بعامة وعلى البرهنة والاستدلال بخاصة وهو ما يعين على التجريد واستخلاص المعاني الكلية ، وهو وسيلة المعرفة فيدرك الجزئي كما يدرك المعاني العامة . (٣)

والعقل يحتاج إلى المعرفة ، والعلم ، وكشف المجهول ، والإبداع ، والاهتداء إلى حقائق الأشياء ...

---

(١) مجمع اللغة العربية " المعجم الوسيط " مادة عَقَلَ .
(٢) القاموس المحيط .
(٣) المعجم الفلسفي مجمع اللغة العربية .

إن البشرية تدين للمفكرين المبدعين بالفضل في تقدمها وتحضرها وحلِّ مشاكلها ، فالمفكرون المبدعون هم أُسُّ أي حضارة وعماد أي تقدم ورقى ، والأغبياء والجاهلون والمنحرفون هم أُسُّ كل تخلف وسبب كل رجعية ، فالعقل والذكاء ما دخل في شيء إلا زانه وطوره ، والجهل والغباء ما دخل في شيء إلا شانه وأفسده حتى وإن كان ديناً سماويّاً .

والأمم المتقدمة هي التي تعلى من شأن العقل وتشجع المبدعين والمبتكرين ، والأمم المتخلفة هي التي تغض من شأن العقل وتحارب المبدعين والمفكرين .

التفكير الإبداعي

التفكير الإبداعي له تعريفات كثيرة منها :

- أن تأتي بفكرة جديدة بالنسبة لك وللآخرين .
- القدرة على توليد أفكار جديدة ومفيدة .
- الإتيان إلى حيز الوجود بشيء لم يكن موجوداً من قبل .
- القدرة على عمل ترابط ورؤية علاقات وروابط جديدة .
- القدرة على أن ينهل الإنسان من موارد متنوعة ويوحد بينها بشكل متكامل وجديد.
- تمكن العقل من إدراك العلاقة بين شيئين بطريقة يتولد عنها ظهور شيء ثالث.

أزمة العقل الغربي الحديث

ولقد تتبع المؤرخ الأمريكي كرين برينتون في كتابه " تشكيل العقل الحديث " مسيرة هذا العقل الغربي أو العقل الأوروبي / الأمريكي منذ انهيار الإمبراطورية الرومانية حتى انبعاث حركات الإصلاح الديني

والنهضة والتنوير .. فوجد أنه عقل مُنْتصِر على الطبيعة ومُنْتصِر على بيئته ولكنه غير مُتوافِق .. إنه مُتمرِّد غير قانع ولا راضٍ .

لماذا ؟ وما هي أزمته حقاً ؟

ترى هل تحرَّر الإنسان من رِبْقَة الكنيسة ورجال الدين من رِبْقَة الإقطاع ليعود عبداً للآلة والتكنولوجيا ومن ثم اللعنة عليهما معاً ؟

وهل صحيح أنه تحوَّل عبداً للآلة والتكنولوجيا ؟ أم عبداً لمن يملكون الآلة والتكنولوجيا ويرسمون أهداف هذا الاستثمار ؟

إن ثقافة المجتمع الغربي الحديثة تشكَّلت فيما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر . حيث بدأ الناس يؤمنون باعتقادات محدَّدة عن أنفسهم وعن الكون وعن رسالة الإنسان على الأرض وما يمكن أن يفعله في هذه الدنيا وكلها اعتقادات لم يكن يؤمن بها أسلافهم وعاشوا في عالم بدا لهم جديداً تماماً حيث إن أفكارهم عنه كانت جديدة بالفعل.

في القرن الثامن عشر كان الغرب ذاخراً بالكتابات التي تدافع عن الرأي الداعي إلى التسامح إزاء الاختلافات الدينية وإلى الفصل بين الكنيسة والدولة ، وإنَّ على الفرد أن يقرَّر بنفسه أمور إيمانه الديني .

وفي القرن التاسع عشر حدث تطور جديد في نظرة الإنسان إلى الكون يتمثَّل في بعض الانجازات المهمة في الكيمياء الحديثة والفيزياء والبيولوجي والمورفولوجي وما قدمه أوجست كونت من إسهام ضخم .. وإسهامات دارون .. وسلسلة طويلة من الباحثين الذين أسهموا على مدى أجيال متعاقبة في صوغ فكرة التطور العضوي فقد أوضحت البحوث الجيولوجية أن الحياة على هذا الكوكب بدأت منذ زمان سحيق يرجع إلى آلاف السنين ، ثم أثبتت الشواهد والبيانات إلى ملايين

السنين . وأوضحت الحفريات أن الكائنات الأكثر حركية وتعقيداً في تكوينها العصبي مثل الفقريات ظهرت متأخرة نسبياً وان أبسط الكائنات الحية هي الأسبق في الظهور ، وبدت الحياة في ضوء ما سجلته الصخور أشبه بسلم يمتد صاعداً مع الزمان .

إن كلاً من القرنين الثامن عشر والتاسع عشر يتقاسمان الأسس الجوهرية للنظرة الحديثة للكون ، وكلاهما يؤمن بالتقدُّم هنا على الأرض وكلاهما يؤمن بإمكانية عمل شيء جذري بالنسبة لكلِّ أنواع التنظيمات هنا ، مما يزيد السعادة ويقلِّل المعاناة وكلاهما في الجوهر والأساس ينزع إلى التفاؤل ويؤمن بالتحسن المضطرد .

ويذكر كرين برينتون أن القرن العشرين يُعدُّ قرن معاداة العقل ، ويعرض عدداً من الأفكار المناهضة للعقل أبرزها الوجودية ، ويؤكد أن النزوع إلى معاداة العقل هو نزوع قديم جداً يرجع إلى أرسطو في كتابه السياسة ويتناول المؤلف إسهامات سيجموند فرويد بالشرح والتحليل كإسهامات فعَّالة في معاداة العقل ، ويتوقَّف عند نيتشه بأنه رائد للنزعة المعادية للتفكير العقلي .

ويقول المؤلف في منتصف القرن العشرين حدث التداخل بين الثقافات الإنسانية وانتقالها ما يمكننا أن نطلق عليه : اتصال الحضارات الإنسانية.

ويخلص كرين برينتون في كتابه " تشكيل العقل الحديث " إلى أن المُعتقدات الجديدة يعوزها الثراء والعمق في إدراك حقيقة البشر الموجودون في الديانات القديمة ومن ثم نراها عاجزة عن حل مشكلة الإنسان حين تحدق به الشدائد ويمكن القول بمعنى من المعاني أن

الديمقراطية والاشتراكية لهما مسار يمنح الإنسان راحة نسبية في عالم تسوده في تصاعد مطرد مؤشرات مادية ولم يحن الوقت بعد الذي يواجههما فيه صوت التعساء الذين تباعد أملهم في بناء الجنة على الأرض ويصرخون مهددين قائلين : وفرِّوا لنا المسكن والطعام وإلا فاخرسوا ويمضى المؤلف إلى القول بأن الديمقراطية المثالية ديمقراطية مؤمنه بالمعنى السامي للعقيدة الدينية وقد تكون أمراً ممكناً على الرغم من أن ديمقراطية كهذه قد يكون عسيراً عليها أن تلائم إرثها الدنيوي والعلمي مع العقيدة ؛ فالإيمان بالتقدُّم على الرغم من حربين عالميتين وأزمة اقتصادية طاحنة شهدتها ثلاثينات القرن قبل الماضي ، لا يزال يمثل إلى حد كبير ، جانباً من الطريقة التي يربَّى عليها الأمريكيون . وهذا الإيمان تأتى من التحوُّل من نعيم المسيحية الغيبي في السماء بعد الموت إلى النعيم العقلاني الطبيعي على هذه الأرض . (١)

والحقيقة أن الغرب يتمتع بميزة خاصة في مواجهته لأزمته المصيرية غير ما هو حادث بالنسبة لشعوب أخرى تعانى أزمة تحوُّل حضاري .

أما هذه الميزة فهي أن الغرب عاش أكثر من خمسة قرون هي عمر العصر الحديث، في ظل سيادة العقل والعلم ، حتى أضحى كلاهما قيمة أساسية وسمة مميزة .

ثانياً : أن الإنسان الأوروبي يعانى حقاً ولكنه يدرك إنه يعانى ، وأخطر ما يتهدَّد المريض ، أن ينكر مرضه وراء أوهام وادعاءات .

ثالثاً : أن مفكري الغرب قادرون على رصد عناصر أزمتهم وتحليلها ، وبيان تسلسل أحداثها ، كما أن الغرب يواجه بجرأة وحرية مشكلاته

(١) كرين برينتون " تشكيل العقل الحديث " ترجمة : شوقى جلال . عالم المعرفة _ الكويت عرض : أحمد ضحية.

مهما تباينت الآراء وتعارضت، ومهما كانت حاجتنا ماسة للإفادة بانجازات العقل الأوروبي في مجال العلوم , إلا إننا لا ننكر خصوصية الجذور الثقافية لفكر كل أمة من الأمم . ولهذا يخطئ بعضنا إذا تصور أننا نعانى ذات الأزمة .. أزمة التحوُّل الحضاري المصيري التي نعانيها . بحاجة إلى دراسة منهجية متميزة . تستهدف الكشف عن الجذور العميقة ، في العصور القديمة والمتوسطة والحديثة ، التي نبع منها فكرنا ، والإبانة عن العوامل التي صاغت عقلنا وسلوكنا بكل ما نعانيه من نقائص ومزايا وايجابيات وسلبيات.[١]

أسباب أزمة العقل الغربي الحديث

إن أزمة العقل الغربي في العصر الحديث تكمن في طغيان الجانب المادي على حياته ، واعتماده الكلي على العقل والعلم ، وإهماله للدين، للروح التي هي نفخة من روح الله تحتاج لمعرفته تعالى وعبادته العبادة الصحيحة، وإذا لم تُشْبع الرح حاجتها أتعست صاحبها مهما كان حظه من نعيم الدنيا ، فنعيم الدنيا قد يسدُّ جوع جسد الإنسان نَعَمْ ، لكنه أبداً لن يسدَّ جوع روحه فلا غرو أن تجد أولئك الذين أهملوا غذاء أرواحهم تائهين لا يعلمون من هم ؟ ومن الذي أتى بهم في هذا العالم ؟ وما هدفهم في هذه الحياة ؟ وماذا بعد الموت ؟

هل هم أبناء هذه الأرض وتطوروا " من خلية كانت في مستنقع آسن قبل ملايين السنين . وقد تطورت هذه الخلية ومرت بمراحل منها ، مرحلة القرد ، انتهاء بالإنسان " كما زعم دارون ؟!

وهل " أن المادة أزلية أبدية وهى الخالق والمخلوق في نفس الوقت ؟!

(١) كرين برينتون " تشكيل العقل الحديث " ترجمة : شوقى جلال . عالم المعرفة _ الكويت عرض : أحمد ضحية.

وهل لم يعد هناك جدوى من البحث في الغاية والهدف من وجود الإنسان لأن داروين قد جعل بين الإنسان والقرد نسباً ، وأن ماركس جعل مطلب الإنسان في الحياة ينحصر في الحصول على (الغذاء والسكن والجنس) مهملاً بذلك جميع العوامل الروحية لديه ؟! " (١)

وهل تحققت لهم السعادة عندما أهملوا الروح وحشوا عقولهم بأفكار الملحدين أتباع العلمانية والشيوعية والوجودية والداروينية القائلة بأن " الإنسان كالكون والحيوان والنبات وجد صدفة وسينتهي كما بدأ ولا توجد حياة بعد الموت " ؟!

والحقيقة أنهم رغم الترف المادي الذي يعيشون فيه لم يحسوا للسعادة طعماً ؛ فأغرقوا أنفسهم في مستنقع الخمور والفجور واستولى عليهم اليأس والقنوط وكان الانتحار هو النتيجة الحتمية لهذه الحياة التعسة " إن (٤٠) ألف مراهق فرنسي يحاولون الانتحار سنويّاً ، وإن (٨٠٠) نفر من هؤلاء لاقوا حتفهم لحظة الانتحار، وإن (١٨٥٢٦) حالة انتحار في أميركا في العام الواحد ، وأوضحت نتائج الدراسة التي أجراها فريق أطباء في السويد أن الكحول يكون السبب في نسبة ٤٤ % من الوفيات وتشمل الوفيات التي تسببها الخمور عمليات الانتحار والسقوط من أماكن مرتفعة وخلص الأطباء إلى هذه النتائج إثر إجرائهم دراسات على وفيات وقعت في السويد طوال خمس سنوات . " (٢)

وكان طبيعيّاً أن يلوذ بعض هؤلاء البائسين بالإسلام لينقذهم مما جنى عليهم الخواء الروحي .

---

(١) موقع الخيمة العربية على الإنترنت بتصرف .
(٢) عن موقع وكالة الأنباء العالمية B B C على الإنترنت بتصرف .

إن الإسلام ينتشر على مستوى المفكرين والمثقفين في الغرب أكثر من انتشاره على مستوى العامة ، وينتشر على مستوى العامة في الغرب كلما ازداد الاختلاط والتقارب مع المسلمين فإن الغرب يجد ارتباطاً روحياً متمثلاً في البعد عن الخمر والإباحية والانتحار عند الاختلاط بالمسلمين كما يجد في دينهم منطقاً فطريّاً خالياً من التعقيد وتسلط الرهبان على الشئون الداخلية. وكنت ألاحظ أن المرأة في أوروبا تشعر بغيرة شديدة من المرأة المسلمة المحجبة وتحسدها على استقرارها العائلي والنفسي بل على الجمال الذي يضفيه عليها الحجاب نفسه ، وأعتقد أن هذه الغيرة النفسية العميقة هي أول العوامل في انتشار الحجاب بين الفنانات عندنا. أما انتشار الإسلام بين المثقفين والمفكرين في الغرب فإنه أوسع وأهم وسيزداد مع ازدياد الاستشراق وازدياد مراكز دراسة الإسلام في الجامعات الغربية ونحن نشاهد الآن مؤتمرات وندوات عن الإسلام تعقد في الغرب " (١)

برغم الحملات الإعلامية المغرضة في جميع وسائل الإعلام الغربية والأمريكية ضد المسلمين والإسلام ، إلا أن عدد الذين يعتنقون الإسلام يزداد بصورة ملحوظة فكل يوم تتوالى أخبار الداخلين في دين الله أفواجاً في الغرب. وبلغ عدد الذين اعتنقوا الإسلام في أسبانيا خلال السنوات الأخيرة أكثر من عشرين ألف شخص .. واللافت للنظر أن معظم المقبلين على الإسلام من المثقفين والعلماء الذين يعتنقون بعد بحث كبير بل إن هناك مئات الدارسين الغربيين المنصفين الذين أصدروا كتباً تؤكد سمو الإسلام ورسالته على جميع الأديان. فهناك جارودي ومحمد أسد ومريم جميلة وغيرهم الكثيرون .

(١) د. صلاح عز رئيس اتحاد الطلاب المسلمين في بريطانيا سابقاً عن موقع الشبكة الإسلامية .

فالأزمات المزمنة التي يعيشها الغرب الآن والأمراض الفتاكة مثل الإيدز الناجمة عن الإباحية وكذا جرائم العنف وحوادث الانتحار الجماعي والتفسخ الأسرى والخواء العقائدي تدفع بالكثيرين إلى البحث عن الحق وهو دين الإسلام .

إن الغرب اليوم يعيش في ظاهرة تمثل صحوة إسلامية رغم الحملات العارمة ضد الإسلام فإقبال النساء على الإسلام وارتداء الحجاب وانتشار المساجد والمراكز الإسلامية في أنحاء أوروبا يؤكد قوله تعالى: ﴿ هُوَ الذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [الصف : ٩] (١)

العَلْمانِيَّة : لغة ، واصطلاحاً

العَلْمانِيَّة في العربية مشتقة من الكلمة (عَلْم) ، وهو مرادف لكلمة (عالَم)، ولا علاقة له بالعِلْم (بكسر العين) كما يتوهم الكثيرون ، ولما لم يكن في العربية (عَلْم) بمعنى العالمَ، فإنهم قالوا أولاً : (عالَماني) .. ثم أسقطوا ألف المد الأولى من لفظ (عالَماني) وسكَّنوا لامه ليصبح (عَلْماني) .

أما في الإنجليزية والفرنسية فهي مشتقة من اليونانية بمعنى "العامة" أو "الشعب" وبشكل أدق عكس الإكليروس أو الطبقة الدينية الحاكمة؛ وإبان عصر النهضة بات المصطلح يشير إلى القضايا التي تهم العامة أو الشعب بعكس القضايا التي تهم خاصته . (٢)

العَلْمانِيَّة تعني اصطلاحاً فصل الأنشطة البشرية والقرارات وخصوصًا السياسية عن المؤسسات الدينية .

---

(١) نفسه .
(٢) لمزيد من التفاصيل عن العلمانية راجع د. عبد الرحمن السليمان" تفكيك مصطلح العلمانية " موقع الجمعية الدولية لمترجمي العربية .

تعرِّف دائرة المعارف البريطانية العَلْمانِيَّة بأنها : " حركة اجتماعية تتجه نحو الاهتمام بالشئون الأرضية بدلاً من الاهتمام بالشئون الأخروية . وهي تعتبر جزءًا من النزعة الإنسانية التي سادت منذ عصر النهضة الداعية لإعلاء شأن الإنسان والأمور المرتبطة به بدلاً من إفراط الاهتمام بالعزوف عن شئون الحياة والتأمل في الله واليوم الأخير .

وقد كانت الإنجازات الثقافية البشرية المختلفة في عصر النهضة أحد أبرز منطلقاتها، فبدلاً من تحقيق غايات الإنسان من سعادة ورفاهية في الحياة الآخرة، سعت العَلْمانِيَّة في أحد جوانبها إلى تحقيق ذلك في الحياة الحالية ." (١)

نشأة العَلْمانِيَّة في أوربا

إن المنهج العلماني الذي انتهجته أوربا في إبان نهضتها لتتخلص من طغيان الكنيسة الكاثوليكية ومن سلطات البابا الذي كان له " سلطة دينية خاصة فهو يُوحى إليه ، من قِبَل الشيطان ، وله الأمر كله ، وهو يغفر السيئات ، ولا يملك أحد عزله، ويقضي بالحرمان حتى على الملوك .. وفي الوقت الذي لم يعد البابا تابعاً لأي من الملوك أصبحوا جميعاً بحكم أنهم مسيحيون تابعون للبابا وخاضعون له ، ثم خطا البابوات خطوة أخرى فأصدروا صكوك الغفران عندما أحسوا بالحاجة للمال لتحقيق أطماعهم وملذاتهم ، واهتمت الكنيسة بالخوارق تبعا لمعجزات السيد المسيح، وحاربت العلم بناء على ذلك ، وتبعاً لهذا الاتجاه أعدمت الكنيسة حرقاً مايكل سرفتوس (١٥١٨ – ١٥٥٢) لأنه

---

(١) www.britannica.com

اكتشف الدورة الدموية الصغرى مع أن العالم الدمشقي ابن النفيس (١٢٨٨) اكتشفها قبله بأكثر من قرنين .. وحرقت الكنيسة كتب العلوم، وساد ظلام كثيف عالم المسيحية وثار المثقفون الغربيون على الكنيسة، وبالتالي ظهر المصلحون ، وظهر البروتستانت ، وضعف صوت الكنيسة، واعتبرت أوربا سقوط سلطان الكنيسة واختفاء الدين تنويراً !"(١)

إن هذا المنهج العَلْمانِيَّ الذي كان له دوافعه ، آنذاك ، هو الذي حدا بأوربا إلى تنحية الدين عن مجالات الحياة : سياسية ، اقتصادية ، اجتماعية ، علمية ، فكرية.

مما انحرف بالنهضة الأوربية عن طريق الحضارة الحقيقي الذي يقوم على المزاوجة بين العلم والدين . فعلى أساس دين الله الصحيح ، وعلومه المقدسة قامت الحضارات الكبرى : المصرية القديمة ، واليونانية، والإسلامية .

يقول حافظ إبراهيم :

وَالعِلمُ إِن لَم تَكتَنِفهُ شَمائِلٌ   تُعليهِ كانَ مَطِيَّةَ الإِخفاقِ
لا تَحسَبَنَّ العِلمَ يَنفَعُ وَحدَهُ   ما لَم يُتَوَّج رَبُّهُ بِخَلاقِ
كَم عالِمٍ مَدَّ العُلومَ حَبائِلاً   لِوَقيعَةٍ وَقَطيعَةٍ وَفِراقِ
وَطَبيبِ قَومٍ قَد أَحَلَّ لِطِبِّهِ   ما لا تُحِلُّ شَريعَةُ الخَلّاقِ
قَتَلَ الأَجِنَّةَ في البُطونِ وَتارَةً   جَمَعَ الدَوانِقَ مِن دَمٍ مُهراقِ

ويجني الغرب ، وكذلك بقية العالم ، نتيجة تخليه عن شريعة الله : حروب ، وتلوث ، وأمراض ، وانتكاس خلقي ..

***

---

(١) د. أحمد شلبي " صراع الحضارات " ص ٦٢ – ٦٤ بتصرف .

العقل العربي في العصر الحديث

النزعة الهيرودية ، ونزعة نسَّاك إسرائيل

يقول الأستاذ العقاد " يقول المؤرخ توينبي : حال المسلمين حيال النهضة الغربية فيقول : " إن المسلمين يواجهون حضارة العصر بنزعتين متناقضتين : إحداهما يسميها النزعة الهيرودية ، وينسبها إلى هيرود ملك اليهود الذي قابل حضارة الرومان بمشابهة الرومان في السكن ، والملبس ، والمعيشة .

والأخرى نزعة الغلاة وينسبها إلى نسِّاك إسرائيل الذين كانوا يصرُّون على القديم وينكرون كل مخالفة للعادات والموروثات .

ولو أراد الأستاذ " توينبي " أن يتوسَّع في الأمثلة لعمَّم القول على الطبيعة الإنسانية في مواجهة كل حديث ، ومقابلة كل تغيير .

ونحن في العصر الحاضر نعرف الرخصة والهوادة ، كما نعرف الشدة والصرامة ، ونواجه الحضارة الأوربية بالنزعتين معا أو نتوسَّط بينهما ، تارة مع المحافظة ، وتارة مع التجديد ، ومن لم يتوسَّط منا تشبث بالمحافظة حتى الجمود أو اندفع مع التجديد حتى أصبح كالمنبت عن الطريق ، وأحسب هذه النزعات جميعا كانت على اختلافها الذي نشهده اليوم في تاريخ كل دعوة ومواجهة كل تغيير " (١)

---

(1) عباس محمود العقاد " الإسلام والحضارة الإنسانية " ص ١٥٧ نهضة مصر .

ورغم مرور نحو نصف قرن على كلام توينبي والعقاد إلا أن المسلمين ما زالوا تتنازعهم نزعتان : النزعة الهيرودية ، ونزعة نسَّاك إسرائيل . أو بمعنى آخر تتنازع المسلمين نزعتان : نزعة العلمانية التغريبية ، ونزعة النصِّيين الحرفيين الاسترجاعية.

النصِّيون الحرفيون

أما النصِّيون الحرفيون الذين نعنيهم فهم أولئك النفر الذين لم يفهموا خصائص هذا الدين الحنيف الشاملة الوسطية الواقعية إنما فهموا الدين على إنه بعض النصوص المجتزأة التي يفسرونها تفسيراً حرفيا بعيداً عن مقاصد الشريعة ، وفقه الواقع ولا علاقة لهذه النصوص المجتزأة ، في الغالب ، بالعلم الصحيح ولا بالعقل الصريح ، ولا بالواقع المعيش !

ونقصد بالعلم هنا العلم الشامل الذي يكشف أسرار الكون ويستنبط قوانينه وينبه الأفهام ، ويوقظ العقول لترى وتدرس آيات الله في الآفاق الكونية ، وفى النفوس البشرية .

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ وَفِى أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت : ٥٣]

ونقصد بالعقل الصريح هو ما يُميَّز به الحق من الباطل والصواب من الخطأ ولا يتحكم فيه هوى ولا تنحرف به شهوات .

أما فقه الواقع فنعنى به التحليل العميق ، والفهم الدقيق لأحوال المسلمين : اجتماعية ، واقتصادية ، ونفسية ... ، وفهم الواقع الخارجي: سياسيّاً ، واقتصاديّاً ، وعسكريّاً ، وعلميّاً ..، وفهم أهم الأفكار والمذاهب العالمية : كالعلمانية ، والاشتراكية ، الوجودية ، والرأسمالية ، والفاشية ، والنازية ، والديمقراطية ، والعولمة ، والنظام العالمي الجديد ...

إن المسلم لا ينبغي أن يعيش فى معزل عما يجرى حوله وإلا تخلف عنه فينبغى أن يكون متابعاً جيداً لما يدور حوله بل مشاركاً فاعلاً فيه .

ولم يكن المسلمون الأوائل بمعزل عن العالم الخارجي بل كانوا يتابعون الصراع الدائر بين الفرس والروم ، وكان النبي ﷺ يعلم أن في الحبشة ملكا لا يُظْلَم عنده أحد، وأن الفرس لن يفلحوا لأنهم ولوا عليهم امرأة ، وأن جنود مصر هم خير أجناد الأرض ..

وترتب على جهلنا بالواقع أن تقدَّم غيرنا وتخلفنا ، صعدوا إلى القمر واكتفينا نحن بالغناء له ، تجمعوا حول الأهداف والمصالح الإستراتيجية، واختلفنا حول أمور وقضايا فرعية ، حاربونا بأحدث الأسلحة الفتاكة ، وقاومناهم بالخطب العنترية البراقة.

إن أيدي الجهل والغباء والتخلف ما مست شيئاً إلا وأفسدته حتى ولو كان ديناً سماويّاً ، فلا يؤخذ دين إلا ممن صحت عقولهم واتسعت آفاقهم .

أن النصِّيين الحرفيين يقفون بالعلم الديني عند أقوال بعض علماء السلف يكرِّرونها دون فهم لمنهجهم الفكري ، والعملي وفي ذلك يقول الإمام ابن قيم الجوزية في "من أفتى الناس بمجرد المنقول في الكتب على اختلاف عرفهم وعوائدهم وأزمنتهم وأحوالهم وقرائن أحوالهم فقد ضل وأضل وكانت جنايته على الدين أعظم من جناية من طبب الناس كلهم على اختلاف بلادهم وعوائدهم وأزمنتهم وطبائعهم بما في كتاب من كتب الطب على أبدانهم بل هذا الطبيب الجاهل وهذا المفتي الجاهل أضر ما على أديان الناس وأبدانهم " (١)

---

(1) " إعلام الموقعين " لابن قيم الجوزية ج ٣ ص ٧٨

أما مفهوم العلوم الحديثة والتقنيات المتقدمة عند هؤلاء النصِّيين الحرفيين فهي من بدع الكفرة الفجرة ، ولا بأس من الاستفادة بالمخترعات النافعة أما الانشغال بهذه العلوم فإن لم يكن حراما فعلى الأقل خلاف الأولى ، والأولى عكوف المسلمين – كل المسلمين – على حفظ المتون والشرح ، والاكتفاء ببيع المصاحف والسُوُك (جمع سواك) وكتب التراث على أبواب المساجد لكسب الرزق . مما أوقع الناس في الحرج مع أن رفع الحرج عن الناس من مقاصد الشريعة الغراء .

أما الدنيا عندهم فلا وزن لها ولا قيمة وطلابها عبيد لها ، والسعي فيها انشغال بها، ولم يفهموا آيات القرآن التي تكلمت عن الدنيا والأحاديث الشريفة إلا على أنها تبغضهم في الدنيا بحلالها وحرامها ، وتأمرهم بطرحها بالكلية والتفرغ للعبادة ولا يكون العمل إلا لكسب لقمة العيش فقط وليس العمل الذي يجعل الدنيا في قبضة المسلمين ليس بقوة السلاح فقط إنما بقوة العلم أيضا .

ولم يفهم النصِّيون الحرفيون أنه عندما لا نزرع ما نأكل ولا نصنع ما نلبس ، ولا ننتج ما نحتاج إليه ونتسوَّل كل ذلك من الكفرة الفجرة فإننا نكون قد أسأنا فهم الدين والدنيا جميعاً .

ولم يفهم هؤلاء المتنطعون أننا لو اكتفينا بالدعاء على أعدائنا دون أن نشفع الدعاء بالعمل نكون قد رضينا من الغَنِيمَةِ بالإيَاب حتى الإياب السالم لن يمكننا أعداؤنا منه ، وهم غير ملومين لأن من يجعل ظهره مطية فلا يلومن من يركبه ، وأن من ظلم نفسه فلا ينتظرن من عدوه إنصافاً .

وهذا الفهم الضيق للدين والعلم والدنيا يُلْزم المتنطعون أنفسهم به كما يلزمون الناس جميعا به ، بل ويحضونهم عليه ، ولما كان المدعو قصارى جهده أن يبلغ درجة الداعي فإن المدعوين من فئات المجتمع المختلفة قصارى جهدهم أن يكونوا هذا الواعظ النصي الحرفي .

العلمانيون العرب التغريبيون

أما العلمانيون التغريبيون فعلى النقيض من النصِّيين الحرفيين ن فإذا كان النصِّيون الحرفيون يرمون الدنيا والعقل وراء ظهورهم فإن العلمانيين من الماركسيين والوجوديين والماديين .. يرمون الدين وراء ظهورهم ، وإذا كان النصِّيون الحرفيون يقدسون بعض كتب السالفين فإن المثقفين العلمانيين يقدسون كتب دارون ، ونيتشة ، وماركس، وساتر، وفرويد...

والخلاصة إن كان النصِّيون الحرفيون ييممون وجوههم قِبَل القديم ويعتبرون أن كل فهم جديد للدين بدعة ضالة وأن الوقوف عند حدود ما أبدعه السالفون نجاة ؛ وأن السابق لم يترك للاحق شيئاً .

فإن العلمانيين التغريبيين ييممون وجوههم قِبَل الغرب ويعتبرون كل فهم قديم للدين تخلف ورجعية وأنه لا إيمان إلا بما يقوله العلم – المادي – والحكمة تقضي – في نظرهم – بأن نأخذ من الغرب فلسفته وفنونه وآدابه كما نأخذ علمه ومخترعاته أن نأخذ أفكار دارون ، ونيتشة ، وماركس ، سارتر ، وفرويد ... كما نأخذ علوم جاليليو ونيوتن وأيشتين ومندل ...

وإذا كانت حجة النصِّيين الحرفيين أن المسلمين ما وصلوا إلى ما وصلوا إليه في أزهى عصورهم إلا بفضل تمسكهم بالدين ، واعتقادهم أن التمسك بأقوال وآراء بعض السلف سيحقق لهم ما تحقق لأسلافهم

من ظهور على سائر الأمم . فإن العلمانيين يقولون إن أوربا ما تقدمت إلا بعدما طرحت الدين وراء ظهرها وأخذت في أسباب العلم المادي .

والحق أن كلا الفريقين مصيب ومخطئ ، فنعم تقدم المسلمون عندما تمسكوا بالإسلام لكن فهمهم للإسلام يختلف عن فهم الوعاظ النصيين الحرفيين له .

فقد فهموا الإسلام على أنه نظام شامل دين ودنيا ، مأثور ومعقول ، إيمان وعمل لا كما يفهمه السلفيون على أنه نقل لا عقل فيه ومأثور لا فقه فيه وثبات لا تطور فيه !!

كما أن أوربا ما تقدمت إلا بعدما طرحت الدين وراء ظهرها وأخذت في أسباب العلم المادي وهذا حق ، ولكن الحق أيضا أن الدين الذي طرحته أوربا والذي كان عائقا للتقدم العلمي والذي حكم رجال دينه على جاليليو بالهرطقة والكفر ليس هو دين الإسلام الذي يجعل العلم – بمفهومه الشامل – فريضة وأنه لا تعارض بين الفهم الصحيح للدين والحقائق العلمية .

مسكين شبابنا – بل مساكين مسلمو العرب – إذ يخير بين أن يكون سلفياً لا عقل له أو علمانيا لا دين له ، أو ماجناً لا حياء له !! (١)

حتى لا نخدع أنفسنا

حتى لا نخدع أنفسنا ونظن أنفسنا ، نحن المسلمين ، أننا أفضل من الغرب المسيحي واليهودي بما حبانا الله تعالى به من نعمة الإسلام التي لا فضل لنا فيها إلا جحودها جحود عمل وتطبيق لا جحود اعتقاد

---

(1) لمزيد من التفصيل الرجوع إلى كتاب " ميزان الحق بين العلمانية اللادينية والسلفية اللاأصولية " للمؤلف . مكتبة مدبولي .

وتصديق على أحسن تقدير . يجب أن نعرف أن الله أوجب على الإنسان تعمير الكون كما أوجب عليه تزكية نفسه وعبادته جل وعلا ، وأن الغرب قد أخذ في أسباب العلم في تعمير الكون والاستفادة منه فأعطاه الله نصيبه في الدنيا من تقدم مادي وعلمي وظهور على سائر الأمم المتخلفة التي لم تأخذ في أسباب العلم والحضارة لكن لا نصيب لهؤلاء في الآخرة ؛ لأن أكثرهم لم يقوموا بمهمة الإنسان الأولى وهى عبادة الله وطاعته ، أما المسلمون فأكثرهم تظاهروا بعبادة الله – شكلاً – بأداء بعض العبادات كالصوم والصلاة دون أن تثمر فيهم هذه العبادات حسن الخلق ولا حسن العمل ، فصلُّوا لكن صلاتهم لم تنههم عن الفحشاء والمنكر فلم تزدهم صلاتهم من الله إلا بعداً ، وصاموا عن الطعام والشراب وأفطروا على المعاصي والآثام فلم يكن حظهم من صومهم إلا الجوع ، وأهملوا– أو كادوا– مهمة الإنسان الثانية في هذه الحياة وهى تعمير الكون فتخلفوا حضاريّاً ، فإذا كان أكثر الغربيين قد أهملوا دين الله الحق فشقوا في الدنيا ولم يعرفوا للسعادة ولا الطمأنينة طعماً وليس لهم في الآخرة من نصيب فقد أهمل أكثر المسلمين الدنيا فتخلفنا في الدنيا ولم نعرف للتقدم ولا للرقى طريقاً وليس لأكثرنا في الدنيا ولا في الآخرة من نصيب – إلا من رحم ربى – لأنه لا يدخل الجنة إلا من آمن بالله تعالى الواحد الأحد وزكى نفسه من آفاتها وعمل الصالحات ومن الأعمال الصالحات تعمير الكون .

حرث الدنيا وحرث الآخرة

تأمل معي هذه الآيات المباركات .

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ

مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُورًا انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ﴾ [الإسراء : ١٨-٢١]

والآيات شديدة الوضوح فمن يعمل للدنيا فقط يعطيه الله تعالى الدنيا ويصليه في الآخرة جهنم ، ومن يريد الآخرة لابد له من أمور ثلاثة : إيمان خالص بالله تعالى لا يشوبه شرك ولا رياء ولا سمعه ، وتخلي النفس عن الأخلاق السيئة وتحليها بالأخلاق الحسنة ، وسعى في الأرض لإصلاحها وإقرار العدل والرحمة فيها ، وإعمار الأرض ونشر قيم الحق والخير والجمال فيها من الأعمال الصالحة التي " لا تقتصر على الشعائر التعبدية المعروفة من صلاة وزكاة وصيام وحج ، بل تشمل كل حركة وكل عمل ترتقى به الحياة ويسعد به الناس .. وكل عمل نافع يقوم به المسلم ، لخدمة المجتمع ، أو مساعدة أفراده .. " (١)

يقول الله تعالى في سورة الشورى :

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى : ٢٠]

ويقول تعالى ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود : ٦١]

أي خلقكم من تراب هذه الأرض وأمركم بتعميرها فدخول الألف والسين والتاء على الفعل تدل على طلب القيام بالفعل كما يقول علماء اللغة فـ " استسقى " فلانا : أي طلب منه السقيا ، و" استطعمه " أي : طلب منه أن يطعمه ، و" استعمره " في الأرض : أي طلب منه تعميرها وإصلاحها .

---

(١) د. يوسف القرضاوي " الخصائص العامة للإسلام " ص١٠٥ ، ١٠٦ بتصرف .

يقول عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : " واحرث لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً " .

ويضرب الله تعالى المثل بذي القرنين ذالك القائد المؤمن ، وقيل أنه نبي ، الذي جمع بين الصلاح والإصلاح ، يذكر الله تعالى لنا قصته لتكون مثالاً لكل من يريد ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة يقول تعالى :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ [الكهف : ٨٣– ٨٥]

يبين الله تعالى بجلاء ووضوح لا يقبلان الشك ولا الجدال سر قوة وتمكين ذي القرنين في الأرض وهو أخذه في أسباب العلم والحضارة والتقدم والرقى.

﴿ وآتيناه من كل شيء سببا ﴾ ، قال ابن عباس: يعنى علماً .

لقد أعطى الله تعالى ذا القرنين العلم فأخذ في أسبابه وأخذ العلم عن علماء كل بلد فتحها بعد أن تعلم لغاتهم " كان لا يعرف قوماً إلا كلمهم بلسانهم " (١) وبالعلم والإيمان ملك ذو القرنين الأرض .

سئل النبي عن ذي القرنين فقال: " ملك مسح الأرض من تحتها بالأسباب " (٢) ويؤكد القرآن أخذ ذي القرنين بأسباب العلم ثلاث مرات ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ [الكهف: ٨٥] ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ [الكهف : ٨٩] ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ [الكهف : ٩٢] .

إذن التمكين في الأرض لا يكون إلا بالأخذ في أسباب العلم الكوني : فيزياء وكيمياء وفلك ورياضيات وهندسة وراثية وعلوم تكنولوجية و ..

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله: {وآتيناه من كل شيء سببا}.
(٢) هذا الحديث ذكره القرطبي في تفسيره وكذلك السيوطي عن ابن عبد الحكم في فتوح مصر وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة، عن خالد بن معدان الكلاعي) .

وفي أسباب الحضارة من : نظام وتعاون وإخلاص ونظافة .. فإذا أراد الإنسان الجمع بين سعادة الدارين فعليه أن يضيف إلى إصلاح الدنيا صحة الإيمان بالله بل عليه أولاً أن يؤمن بالله تعالى ويؤدى ما فترضه عليه وينتهي عما نهاه عنه ثم يقرن هذا الإيمان بالعمل الصالح في الدنيا فإن فعل ذلك فقد استحق وعد الله بالاستخلاف في الأرض وتمكين الدين له وإبداله من بعد خوفه أمناً .

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم في الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الذي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لاَ يُشْرِكُونَ بِى شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور : ٥٥]

وفي سورة الروم يضرب لنا الله تعالى المثل بالأمم القوية الأشداء أهلها الذين استطاعوا أن يثيروا الأرض ويعمروها لكنهم كفروا بما جاءتهم به رسولهم من الهدى ودين الحق فأعطاهم الله نصيبهم في الدنيا : القوة والمنعة والعلو وكافأهم بسعيهم في الدنيا فلاحاً وما كان الله ليظلمهم في الدنيا لكنهم ظلموا أنفسهم في الآخرة بترك عبادة الله .

والأمثلة في التاريخ كثيرة فالحضارة اليونانية والرومانية والفارسية والأوربية الحديثة والأمريكية المعاصرة رغم عدم إيمان أكثرهم إلا أن الله مكن لهم في الدنيا ما داموا مصلحين للدنيا فإن تفش فيهم الفساد والظلم دمر الله عليهم.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا في الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

[الروم : ٩]

ويقول تعالى في سورة هود أنه سبحانه لن يعاقب الكفار المصلحين في الدنيا بكفرهم بل سيعطيهم أجرهم فيها بقدر إصلاحهم لها ، أما الآخرة فالنار مثوى الكافرين ، أما الأمم التي عاقبها الله تعالى في الدنيا فكان بسبب الإفساد في الأرض لا بسبب الشرك وحده .

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاَقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [القصص : ٥٨-٦١]

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود : ١١٧]

قوله تعالى: "وما كان ربك ليهلك القرى" أي أهل القرى . "بظلم" أي بشرك وكفر. "وأهلها مصلحون" أي فيما بينهم في تعاطي الحقوق؛ أي لم يكن ليهلكهم بالكفر وحده حتى ينضاف إليه الفساد، كما أهلك قوم شعيب ببخس المكيال والميزان، وقوم لوط باللواط ؛ ودل هذا على أن المعاصي أقرب إلى عذاب الاستئصال في الدنيا من الشرك، وإن كان عذاب الشرك في الآخرة أصعب. وفي صحيح الترمذي من حديث أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: " إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده" (١)

فالظلم والطغيان والإفساد في الأرض هو سبب هلاك الأمم وليس الكفر وحده والتاريخ يشهد بذلك فأهل الغرب أكثرهم كافرون بالله تعالى

---

(١) تفسير القرطبي ج ٩ ص ١١٤ .

لكنهم في الدنيا مصلحون أو على الأقل أفضل من المسلمين في إصلاح الدنيا وتعميرها فلم يهلكهم الله تعالى في الدنيا إنما أهلكنا نحن بهم بسبب ظلم أكثرنا وعدم إصلاحهم في الدنيا .

يقول د. حسين مؤنس أحد مؤرخي العرب المحدثين: " إن الحضارة علم وتعاون وفهم ونحن لن نتحرك خطوة إلى الأمام إلا إذا كانت لدينا هذه الأربعة والعلم ليس شهادة بل معرفة وثيقة ومؤكدة .. مئات الشهادات عندنا خسائر قومية لأنها لا تساوى الورق الذي طبعت عليه الواحدة منهن ، أي من الأجنبيات الغربيات ، إذا جلست للعمل انصرفت إليه بقلبها وعقلها وإحساسها جميعا لأنها تريد أن تعمل أحسن ما يستطيع البشر وأقل من هذا لا يرضيها لأنها متحضرة وهى تتعاون مع زميلاتها خطوة خطوة لأن الحضارة تعاون والإنسان الفرد لا يمثل حضارة ولا ينهض بحضارة ، ومصيبة تاريخنا أننا لا نعرف التعاون .. ولو أن الناس عندنا لديهم أدنى إدراك لمعنى العمل المشترك لما كان الأتوبيس عندنا على هذه الصورة المزرية . سألني سائل : ماذا يخسر أولئك الناس لو وقفوا طابورا وتركوا الخارج يخرج ثم دخلوا بالدور بنظام وقيمة ؟ قلت : هؤلاء يا أخي ناس غير متحضرين ، إنهم همج ، وإخواننا هؤلاء هم أبناء عمومة الآخرين الذين يربون البلهارسيا في أجسادهم ، وهم أخوة العمال الذين أنتجوا ما يقدر بستة بلايين من الجنيهات بضائع لا يشتريها أحد لأنها لا تصلح للاستعمال والذين أنتجوها يعملون دائما دون تركيز ودون التفات ودون اكتراث إنهم غير متحضرين إنهم همج .. صدقني .. همج ! .. مثل هذا المستوى البدائي الذي نعيش فيه لا يمكن أن نصل إلى مستوى العلم والإنتاج الذي حدثتك عنه – يقصد الإنتاج الغربي – لأن هذا كله ثمرة العمل

الجماعي ، وأنا عشت في أوساط العلم في أوروبا وأمريكا وأعرف كيف يتعاملون ، لا أحد يعمل منفرداً أبداً وكما أن السيارة التي حدثتك عنها هي ثمرة عمل ألف يد وألف عين فكذلك كل قطعة فيها فإن العلم لا يزرع ولا يوجد على الأرض ولا يستخرج من البحار كاللؤلؤ إنما هو ثمرة العمل الجماعي وقد وصل العلم في عصرنا إلى مستويات أشك معها في أن نستطيع اللحاق بهم فيها إلا إذا تغير فينا كل شيء فنحن بدائيون أنانيون ، ونحن مازلنا نهيم على وجوهنا ضائعين في مجتمعنا هذا الذي هو في الحقيقة غابة . يقول لك الجامعيون لقد أعددنا مكانا لكل حاصل على الثانوية العامة ، وماذا سيفعل الطالب في هذا المكان؟ لا شيء . إن أستاذه نفسه بعيد جداً عن فكرة العلم في عصرنا، والمسالة كلها خطف، الطالب يخطف ، والأستاذ يخطف ، وقرود الغابة مطلقة على وجهها " (١)

ولو أن الغرب المتحضر وصله الإسلام بشكل صحيح ، وأن المسلمين لم يكونوا صورة شائهة له ، وكف إعلامه عن تشويهه لدخل الغرب المتحضر في دين الله أفواجنا ، ولتخلى عن كل المعتقدات التي يدين بها سواء أكانت سماوية محرفة أم دنيوية مؤلفة .

* * *

---

(١) د. حسين مؤنس " المصريون والحضارة " الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ١٤٨- ١٥٠ .

مكانة العقل في الإسلام

سمو مكانة العقل

إن للعقل مكانةً ساميةً في الإسلام فقد ذكر القرآن العقل ومشتقاته نحو تسع وأربعين مرة ، أما كلمة العلم ومشتقاتها فقد ذكرت أكثر من سبعمائة مرة في القرآن الكريم .

وقد وصف الله تعالى من أوتى الحكمة ، وهي إحدى ثمار العقل ، بأنه أوتى خيراً كثيراً ﴿يُؤتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاء وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾ [البقرة : ٢٦٩]
وجعل الإسلام العقل مناط التكليف فلا إيمان لمن لا عقل وكان النبي ﷺ إذا ذُكر له عبادة رجل سأل عن عقله وهو القائل " إن لكل شيء دعامة ودعامة المؤمن عقله فبقدر عقله تكون عبادته ، أما سمعت قول الفجار ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾
[الملك : ١٠] [أخرجه ابن المجبر]
قال الإمام النسفي في تفسير الآية الكريمة " وقالوا لو كنا نسمع الإنذار سماع طالب الحق أو نعقل أي نعقله عقل متأمل ما كنا في أصحاب السعير في جملة أهل النار وفيه دليل على أن مدار التكليف على أدلة السمع والعقل وأنهما حجتان ملزمتان . (١)

ولقد حرم الله تعالى كل ما يفسد العقل مثل : الخمر والمخدرات والمسكرات ...

---

(١) تفسير النسفي ج٤ ص ٢٦٤

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة : ٩٠]

وعن ابن عمر عن النبيﷺ قال " كل مسكر خمر، وكل خمر حرام " [رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن]

سُمِّيَتْ الخمر خَمْراً لأَنَّها تَخْمِرُ العَقْلَ وتَسْتُرُهُ . (١)

وبالعقل عُرِف الله تعالى. وبالعقل قام الدليل على النبوة . والعقل هو المخاطب في آي القرآن والمطالب بالاهتداء إلى الخالق جل وعلا .

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِى الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران : ٩٠]

والعقل هو المكلَّف بتدبر الكون والاهتداء إلى سنن الله في خلقه وهو بحكم طبيعته يحتاج إلى المعرفة ، والعلم ، وكشف المجهول ، والإبداع ، والاهتداء إلى حقائق الأشياء ..

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لأُوْلِى الأَلْبَابِ﴾ [الزمر : ٢١]

والعقل إن لم يؤمن بدين الله الحق تخبط في مذاهب وفلسفات شتى يقتنع بإحداها اليوم ثم ما ليبث أن يتركها لمذهب آخر عندما تظهر له مفاسده ، ويظل ينتقل من مذهب إلى مذهب هكذا دواليك كريشة في مهب الريح أو كزورق تتقاذفه الأمواج العاتية ولا يصل إلى الإيمان واليقين الذي لا يزعزعه شك ولا تخالطه ريبة إلا مع دين الله الصحيح " الإسلام " ، وبدون هذا الدين القويم لا يستقر العقل على مذهب فكلها لها عيوبها ومسالبها التي ذكرها أعداء هذا المذهب أو أثبتته الأيام

---

(١) انظر القاموس المحيط مادة " خمر " .

وكشفها الواقع والأمثلة على ذلك كثيرة ، فكثير من الناس في الشرق والغرب آمنوا بالماركسية وبماركس نبيها ثم ما لبثوا أن تبدت لهم عيوبها: كفقدان الدافع للعمل ، والقضاء على الطموح والرغبة في الترقي، وافتقار الروح للإيمان بخالقها الكامل الخالد القادر ، وإفقار الأغنياء وعدم إغناء الفقراء ، وديكتاتورية الحزب الشيوعي وتسلطه وقهره للشعوب واغتناه على حساب إفقار جميع الطبقات.

فكفر بعضهم بالماركسية ولجئوا إلى الوجودية ولاذوا بنبيها سارتر الذي هو على النقيض من ماركس ، لكن سرعان ما ظهرت عيوب الوجودية: كالحيرة والقلق الذي أصاب نفوس الوجوديين بالدمار وقد ترك هذا القلق المرضى رواسبه حالياً في المجتمعات الغربية وصاحبه تفكك كثير من جوانب هذه المجتمعات .[١] مما جعل هؤلاء الوجوديين وغيرهم من أصحاب الأفكار الفلسفية المعاصرة يلجئون إلى حركات اللا معقول واللا مبالاة وغيرها من حركات أخرى غريبة وشاذة .[٢] وهكذا يظل العقل البعيد عن دين الله القويم يتخبط في ظلمات الجهل والشك ولن يصل إلى الإيمان واليقين مما يجعل صاحبه ينغمس في الشهوات الحسية والملذات الحيوانية والشذوذ ، ثم يدمن المخدرات والمسكرات ليطمس بها على عقله الذي لم يوصله لشيء وأخيراً يلجأ إلى الانتحار ليتخلص من هذه الحياة البائسة الخالية من السعادة إذ لا سعادة إلا في ظل إيمان حقيقي بدين الله تعالى" الإسلام " .

والعجيب أن الإسلام أمرنا باستخدام العقل في فهم كتابي الله تعالى : المقروء (القرآن الكريم) ، والمشهود (الكون) كما أمرنا باستخدام العقل في فهم كتابي الإنسانية : المقروء (التاريخ) ، والمشاهد (الواقع) .

---

(١) سماح رافع محمد ، ومحمد مصطفي البسيونى " الفلسفة ومشكلات الإنسان " ص ٧٨
(٢) نفسه ص ٨٧

وسوف نوضح هذا بشيء من التفصيل حتى نبين دور العقل في فهم الدين ، وفهم الكون ، والتاريخ ، والواقع .. كما أكدت ذلك نصوص الدين : القرآن الكريم ، والسنة المطهرة .

أولا : دور العقل في فهم كتاب الله المقروء (القرآن الكريم)

يقول الله تعالى في واجب الإنسان نحو القرآن المبارك .

﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [ص : ٢٩]

إذن واجب الإنسان نحو القرآن الكريم كما اخبر الله تعالى هو التدبر والفهم .

وأمر الله تعالى بالبحث الدقيق في القرآن الكريم ، ومعرفة توازنه العجيب ، وآياته التي تسير في خط مستقيم لا عوج فيه ولا انحراف . وأحكامه المتوازنة في ذاتها ، والمتوازنة مع كيان الإنسان المخاطب بها فلا تناقض فيها ولا تعارض .

﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا﴾ [النساء : ٨٢]

وقد نعى الله تعالى على أولئك الذين ختم الجهل والهوى على قلوبهم وصرفهم عن تدبر القرآن جهلهم وغباءهم .

﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد : ٢٤]

وأخبر الله تعالى أن المؤمنين الذين يرتلون القرآن ويتدبرون معانيه هم الفائزون أما الذين كفروا بالقرآن فأولئك هم الخاسرون .

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمن يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة : ١٢١]

إذن الواجب نحو القرآن الكريم ، كما بينت الآيات ، هو التدبر .

الفرق بين التدبر والحفظ

تدبر الأمر أي فهمه وفكر فيه وعرف ما تؤول إليه عاقبته ،وتدبر القرآن أي تفكر فيه ليعرف معناه فكان في هذا رد على فساد قول من قال : لا يؤخذ من تفسيره إلا ما ثبت عن النبي ﷺ ومنع أن يتأول على ما يسوغه لسان العرب. وفيه دليل على الأمر بالنظر والاستدلال وإبطال التقليد، وفيه دليل على إثبات القياس. (١)

أما كلمة الحفظ فلها معنيان هما : الاستظهار ، والصيانة والحراسة .

أما عن حفْظ القرآن لاستظهاره فقط دون فهم وتدبر ، ودون أن يمس القلبَ نورُه فليس هو المقصود فقد جاء في تفسير قوله تعالى ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾

[فاطر : ٣٢]

الظالم التالي للقرآن ولا يعمل به، والمقتصد التالي للقرآن ويعمل به، والسابق القارئ للقرآن العامل به والعالم به . (٢)

ولقد وضح لنا النبي كريم الفرق بين الحافظ والفاهم حيال ما جاء من الهدى والعلم فقال ﷺ : "إِنّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِى اللّهُ بِهِ عَزّ وَجَلّ مِنَ الْهُدَىَ وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضاً. فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيّبَةٌ. قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ. وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ. فَنَفَعَ اللّهُ بِهَا النّاسَ. فَشَرِبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَرَعَوْا. وَأَصَابَ طَائِفَةً مِنْهَا أُخْرَىَ.

---

(١) تفسير القرطبي ج٥ ص ٢٩٠
(٢) تفسير القرطبي ج١٤ ص ٣٤٨

إِنّمَا هي قِيعَانٌ لاَ تُمْسِكُ مَاءً وَلاَ تُنْبِتُ كَلأً. فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ في دِينِ اللّهِ، وَنَفَعَهُ بِمَا بَعَثَنِى اللّهُ بِهِ ، فَعَلِمَ وَعَلّمَ. وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْساً. وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللّهِ الذي أُرْسِلْتُ بِهِ " [متفق عليه]

يبين النبي ﷺ أن الذي انتفع بالهدى هو النوع الأول من الناس الذين لهم أفهام ثاقبة ولهم رسوخ في العقل يستنبطون به المعاني والأحكام وعندهم اجتهاد ، أما النصيون الحرفيون فهم الحافظون لأسانيد الأحاديث ومتونها الجاهلون بعللها وفقهها فهم ، النوع الثاني من الناس لهم قلوب حافظة لكن ليست لهم أفهام ثاقبة ولا رسوخ لهم في العقل يستنبطون به المعاني والأحكام وليس عندهم اجتهاد في الطاعة والعمل به، فهم يحفظونه حتى يأتي طالب محتاج متعطش لما عندهم من العلم أهل للنفع والانتفاع فيأخذه منهم فينتفع به فهؤلاء نفعوا بما بلغهم .[1]

ولقد شبَّه الله تعالى اليهود ومن على شاكلتهم ممن آثروا حفظ نصوص الدين على فهمها بالحمار الذي يحمل أسفاراً لا يفقه فيها شيئًا.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾
[الجمعة : ٥]

أي كمثل الحمار إذا حمل كتباً لا يدرى ما فيها، فهو يحملها حملاً حسيّاً ولا يدرى ما عليه، وكذلك هؤلاء في حملهم الكتاب الذي أوتوه، حفظوه لفظاً ولم يتفهموه، ولا عملوا بمقتضاه، فهم أسوأ حالاً من الحمار، لأن الحمار لا فهم له، وهؤلاء لهم فهوم لم يستعملوها، كما قال تعالى:

(١) الإمام النووي" صحيح مسلم بشرح النووي " ج ١٥ ص ٤٨ .

﴿أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾
[الأعراف : ١٧٩] (١)

إن الفقه هو المصحح لجميع العبادات وهي بدونه فاسدة ، فالمتعبد على جهل يتعب نفسه دائماً كالحمار وهو يحسب أنه يحسن صنعاً وفي تشبيهه بالحمار مذمة ظاهرة وتهجين لحاله كما في قوله تعالى : ﴿كمثل الحمار يحمل أسفاراً﴾ وشهادة عليه بالبله وقلة العقل . (٢)

أما حفظ القرآن بمعنى الصيانة والوقاية والحراسة فقد تكفَّل الله تعالى به .

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر : ٩]

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ [القيامة : ١٧]

وما طالبنا الله بحفظ القرآن الكريم – بمعنى استظهاره فقط دون الوقوف على معانيه – يقول على رضي الله عنه : " إنه لا خير في عبادة لا علم فيها، ولا علم لا فقه فيه، ولا قراءة لا تدبر فيها " (٣)

إنما طالبنا الله تعالى بحفظ الفرج عن الزنا ، وحفظ اللسان عن الغيبة والنميمة وكذب ... ، وحفظ البطن عن أكل الحرام ، وحفظ العين عن النظر إلى ما حرم الله تعالى، طالبنا بعامة حفظ الجوارح والقلوب عن معصية الله ...

حتى أن الصحابي الجيل الذي اختاره أبو بكر لجمع القرآن كان أهم مؤهلاته العقل إلى جانب الأمانة قال زيد بن ثابت قال أبو بكر: " إنك

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٨ ص ١١٧ .
(٢) الإمام المناوي " فيض القدير " ج٦ ص ٣٣٩ .
(٣) تفسير القرطبي ج ١٤ ص ٣٤٤

رجل شاب عاقل لا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ ، فتتبع القرآن فاجمعه " [رواه البخاري]

المتدبرون والمقلدون

لقد أمرنا الله تعالى بتدبر القرآن الكريم وإعمال العقل في استخراج كنوزه واستكشاف أسراره في آيات كثيرة منها قوله تعالى :

﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]

﴿كِتَابٌ أَنزلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]

﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]

فالواجب على العلماء والدعاة إلى الله تعالى إعمال عقولهم في الكشف عن معاني كلام الله، وتفسير ذلك في ضوء العلوم الحديثة والواقع المتغير والتطور المستدام وعدم الاكتفاء بترديد ما تركه لهم السابقون .

إن الحق تعالى يريد أن يعطي الإنسان دربة حتى لا يأخذ المسألة برتابة بليدة ويتناولها تناول الخامل ويأخذها من الطريق الأسهل ، بل عليه أن يستقبلها باستقبالٍ واع وبفكر وتدبر .

﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القرآن أَمْ على قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد : ٢٤]

كل ذلك حتى يأخذ العقل القدر الكافي من النشاط ليستقبل العقل العقائد بما يريده الله ، ويستقبل الأحكام بما يريده الله ، فيريد منك في العقائد أن تؤمن ، وفي الأحكام أن تفعل .[١]

---

(١) تفسير الشعراوي ج ١ص ٨٢٣

والاستفهام في الآية الكريمة للإنكار والزجر ، أي : أيعرضون عن كتاب الله تعالى فلا يتدبرونه مع أنه زاخر بالمواعظ والزواجر والأوامر والنواهي .

﴿أَمْ على قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ أي : بل على قلوب هؤلاء المنافقين أقفالها التي حالت بينهم وبين التدبر والتفكر . (١)

لقد نعى الله على أولئك المتخلفين الذين يرفضون الفهم الجديد ويقدسون مواريث القديم البائدة تقليدهم ، أولئك الجهال المقلدون لغيرهم تقليداً أعمى دون بصيرة ، ودون فقه لدين أو لواقع فقال تعالى :

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُون﴾ [البقرة : ١٧٠]

ويشدد القرآن في الدعوة إلى تدبر كتاب الله وسنة رسوله ويقيم الحجة على أولئك العاكفين على تلاوة ما خلفه القدماء من معارف ذاهلين عن تدبر القرآن الكريم ، والسنة المطهرة .

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُون﴾

[المائدة : ١٠٤]

والآية وإن كانت قد نزلت في عرب الجاهلية الذين تحكمت فيهم آراؤهم السفيهة في البحيرة والسائبة والوصيلة فهي عامة في كل من قلد غيره دون فهم واتبع أقوال السالفين دون مراعاة للواقع المتغير ولا للعلم المتجدد وأحوال الناس المختلفة .

---

(١) محمد سيد طنطاوي " التفسير والوسيط " ج ١ ص ٣٨٩٥

يقول القرطبي : " قال علماؤنا: وقوة ألفاظ هذه الآية تعطى إبطال التقليد . " (١)

فلا غرو أن يصف الله تعالى المقلدين تقليداً أعمى بالعمى في الدنيا ، وتوعدهم بالعمى في الآخرة ﴿وَمَن كَانَ في هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ في الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الإسراء : ٧٢]

ولا يظن ظان أننا ننهي عن حفظ القرآن الكريم وتلاوته فهذا من العبادات المقررة .

فالنبيِّ ﷺ قَالَ : " يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ : اقْرَأْ وَارْتَقِ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ في الدُّنْيَا ، فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آية تَقْرَؤُهَا "

[رواه أَبُو داود والترمذي]

والمقصود بقارئ القرآن في الحديث: هو الذي كان يتلوه في الدنيا حق تلاوته، ويعمل بأحكامه فيأتمر بأوامره ويزدجر عن نواهيه، فهذا قارئ القرآن الذي يقرؤه رغبة فيه . (٢)

إنما ننهي عن الاستماع إلى أولئك الذين عطَّلوا عقولهم فلم يتدبروا القرآن الكريم، ولم يديموا النظر فيه إنما اكتفوا بالتمسك بظاهر الآيات وحفظ بعض الآثار ويريدون أن يحملوا الناس قهراً على فهمهم السقيم .

يقول تعالى : ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾ [الحجر: ١٢، ١٣]

يقول الفخر الرازي : " نقول التأويل الصحيح أن الضمير في قوله تعالى كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ عائد إلى الذكر الذي هو القرآن فإنه تعالى قال قبل

---

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٢١١ .
(٢) مركز الفتوى بإشراف د.عبد الله الفقيه

هذه الآية إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وقال بعده كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ أي هكذا نسلك القرآن في قلوب المجرمين والمراد من هذا السلك هو أنه تعالى يسمعهم هذا القرآن ويخلق في قلوبهم حفظ هذا القرآن ويخلق فيها العلم بمعانيه وبين أنهم لجهلهم وإصرارهم لا يؤمنون به مع هذه الأحوال عناداً وجهلاً فكان هذا موجباً للحوق الذم الشديد بهم .(١)

أولو الألباب في القرآن الكريم

ما خاطب الله تعالى أولى الحفظ مرة إنما خاطب أولى الألباب في ست عشرة مرة في كتابه العظيم .

﴿إِنَّ في خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِى الألْبَابِ﴾

كما يأمر الله تعالى أولى الألباب بدراسة سير الأنبياء والصالحين واستخلاص العبرة والموعظة من حياتهم ، والإقتداء بهم في حياتهم الزاخرة بالإيمان والعمل الصالح .

﴿لَقَدْ كَانَ في قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِى الأَلْبَابِ﴾

كما يأمر الله تعالى أولى الألباب تدبر دورة المياه في الحياة فكيف يصعد البخار العذب من أسطح المحيطات والبحار المالحة عندما تسقط أشعة الشمس عليها ، ثم يتكاثف في طبقات الجو ، وتحركه الرياح ليسقط على منابع الأنهار ويجرى بالخير والنماء فيشرب والناس والحيوان و وينبت الزرع مختلفا أوانه وطعومه وتنشأ ﴿جَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاء وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ في الأُكُلِ إِنَّ في ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد : ٤]

---

(١) فخر الدين الرازي " مفاتيح الغيب " ج ١٩ ص ١٢٩

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّـهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لأُوْلِى الأَلْبَابِ﴾ [الحديد : ٢١]

كما يقرر القرآن أن الراسخين في العلم هم الذين يؤمنون بكل ما أنزله الله .

﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّر إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران : ٧]

كما أن الله تعالى وصف أولى الألباب بأنهم هم أصحاب البصيرة الذين يدركون أن ما جاء به الأنبياء هو الحق بعكس الأغبياء الجهال الذي يصفهم الله تعالى بعمى القلب ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّر أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾ [الرعد : ١٩]

كما يعلمنا الله تعالى أن أولى الألباب هم الذين يعملون بأحسن ما عرفوا من علوم الأقدمين وإبداعات المحدثين فهم غير مقلدين إنما يدرسون ويتعلمون ويعملون بأحسن ما عرفوا ودرسوا .

﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [الزمر : ١٨]

واللب أخص من العقل وهو الخالص من الشوائب ، وقيل هو ما زكى من العقل وكل لب عقل ولا عكس . (١)

والعقل إن سيطر عليه الهوى فسد ، وإن بعد عن هدى الدين ضل ، وإن دخل فيما لا مجال له فيه شطّ .

---

(١) الإمام المناوى" فيض القدير" ج٢ ص ٧٠

﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية : ٢٣]

العقل وأعظم حقيقتين في الوجود

ومما سبق يتبن لنا مدى تقدير الله تعالى للعقل حيث ترك له في مجال العقيدة أن يهتدي إلى أعظم حقيقتين في هذا الوجود : حقيقة وجود الله ووحدانيته ، وحقيقة ثبوت الوحي والنبوة والرسالة .

يلفت الله تعالى الإنسان إلى إدراك وجوده ، سبحانه ، بتدبر بديع خلقه والبحث عن خالق هذا الوجود .

﴿ إِنَّ في خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِى الألْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ في خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [آل عمران : ١٩١]

ثم يطلب الله تعالى من الإنسان أن يسأل نفسه بعد تفكره في خلق السموات والأرض وما بينهما .

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لا يُوقِنُونَ ﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦]

فأتى الله تعالى لمنكري وجود الله تعالى بمسألة الخَلْق الظاهرة التي لم يدَّعها أحد، ولا يجرؤ أحد على إنكارها ، حتى المشركون والملاحدة؛ لأن أتفه الأشياء في صناعاتهم يعرفون صانعها ، ويُقرُّون له بصنعته ، ولو كانت كوباً من زجاج أو حتى قلم رصاص ، لا بُدَّ أن لكل صنعة صانعاً يناسبها .

أليس مَنْ خلق السماوات والأرض والشمس والقمر . . إلخ أَوْلَى بأن يعترفوا له سبحانه بالخَلْق؟ وهم أنفسهم مخلوقون ولم يقولوا إنَّا خلقنا أنفسنا ، ولم يقولوا خلقنا غيرنا ، فمَنْ خلقهم إذن؟

إن الدَّعْوى تثبت لصاحبها ما لم يَقُم لها معارض ، والحق ، سبحانه وتعالى ، قال علانية ، وعلى لسان رسله ، وفي قرآن يُتْلَى إلى يوم القيامة ، وأسمع الجميع : أنا خالق هذا الكون .

فإنْ قال معاند : فَمَنْ خلق الله؟ نقول : الذي خلقه عليه أن يعلن عن نفسه .

والحق سبحانه شهد لنفسه أنه لا إله إلا هو ﴿شَهِدَ الله أَنَّهُ لاَ إله إِلاَّ هُوَ ﴾ [آل عمران : ١٨] ولم يقُلْ أحد أنا الإله . إذن : الذين ينكرون الخالق لا حَقَّ لهم . هذا في جدال الملاحدة الذين ينكرون وجود الله .

أما الذين يؤمنون بوجود الله ، لكن يتخذون معه سبحانه شركاء ، فنجادلهم على النحو التالي : شركاؤكم مع الله غَيْب أم شهادة؟ إنْ قالوا : غَيْب فإن الله تعالى شهد لنفسه بالوحدانية . وقال : أنا واحد لا شريك لي ، فأين كان شركاؤكم؟

لماذا لم يدافعوا عن ألوهيتهم مع الله؟ إما لأنهم ما دروا بهذا الإعلان، وإما أنهم دَرَوا وعجزوا عن المواجهة ، وفي كلتا الحالتين تنفي عنهم صفة الألوهية ، فأيُّ إله هذا الذي لا يدري بما يدور حوله ، أو يجبن عن مواجهة خَصْمه؟

فإنْ قالوا : شركاؤنا الأصنام والأشجار والكواكب وغيرها ، فهذه من صُنْع أيديهم، فكيف يعبدونها ، ثم هي آلهة لا منهجَ لها ولا تكاليفَ ، وإلا فبماذا أمرتهم وعَمَّ نهتْهم؟ إذن : عباداتهم لها باطلة .

ثم نسأل الذين يتخذون مع الله شركاء : أهؤلاء الذين تشركونهم مع الله يتواردون على الأشياء بقدرة واحدة ، أم يتناوبون عليها ، كل منهم بقدر على شيء معين؟

إنْ كانوا يزاولون بقدرة واحدة ، فواحد منهم يكفي والباقون لا فائدة منهم ، وإنْ كانوا يتناوبون على الأشياء ، فكلٌّ منهم قادر على شيء عاجز عن الشيء الآخر ، والإله لا يكون عاجزاً .

وقد رَدَّ الحق سبحانه على هؤلاء بقوله تعالى : ﴿قُلْ لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إِلى ذِي العرش سَبِيلاً﴾ [الإسراء : ٤٢] أي : لَذهبوا إليه إما ليُعنِّفوه ويُصَفّوا حساباتهم معه ، وكيف أخذ الأمر لنفسه ، وإما ليتوددوا إليه ويعاونوه .

وفي موضع آخر : ﴿إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إله بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ﴾ [المؤمنون : ٩١] (١)

انظر كيف ترك الله تعالى للعقل أن يهتدي إلى أعظم حقيقة في هذا الوجود وهي: حقيقة وجود الله ووحدانيته .

كما ترك الله تعالى للعقل أن يهتدي إلى حقيقة ثبوت الوحي والنبوة والرسالة .

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَى عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾
[سبأ : ٤٦]

الله تعالى يدعو الناس إلى التفكر والتدبر بلا مؤثر خارج عن الواقع الذي يواجهه القائمون لله المتجردون .

---

(١) تفسير الشيخ الشعراوي ص ٧٠٢٣ ، ٧٠٢٤

﴿أن تقوموا لله . مثنى وفرادى﴾ مثنى ليراجع أحدهما الآخر ، ويأخذ معه ويعطي في غير تأثر بعقلية الجماهير التي تتبع الانفعال الطارئ ، ولا تتلبث لتتبع الحجة في هدوء ، وفرادى مع النفس وجهاً لوجه في تمحيص هادئ عميق .

﴿ثم تتفكروا . ما بصاحبكم من جنة﴾ فما عرفتم عنه إلا العقل والتدبر والرزانة . وما يقول شيئاً يدعو إلى التظنن بعقله ورشده . إن هو إلا القول المحكم القوي المبين . (١)

وهكذا عهد الله تعالى إلى العقل البشري أن يهتدي إلى أعظم حقيقيتين في مجال العقيدة : حقيقة وجود الله ووحدانيته ، وحقيقة ثبوت الوحي والنبوة والرسالة.

دور العقل في التشريع

أما في مجال التشريع فقد ترك الحق تبارك وتعالى للعقل أن يصول ويجول في فهم النصوص فيفرع منها على الأصول وقيس على الفروع ويستنبط الأحكام ، ويكيف الوقائع ، ويراعى القواعد في جلب المصالح، ودرء المفاسد ، ورفع الحرج، وتحقيق اليسر ، وتقدير الضرورات بقدرها، واعتبار العرف، ورعاية ظروف الزمان والمكان . ولا عجب بعد ذلك أن تعددت المذاهب ، وتنوعت الأقوال ، وخلف لنا العقل الإسلامي في ضوء الوحي ثروة فقهية طائلة لها مكانها الرفيع في تراث الفقه العالم (٢)

إن العقل الكامل لازم للمجتهد بلا جدال يتدبر به معاني الأحكام : يرجع بالفروع إلى أصولها المقررة ، وبالجزئيات إلى كلياتها الثابتة ،

---

(١) سيد قطب " في ظلال القرآن الكريم " ج ٦ ص ١٢٥ ، ١٢٦

(٢) د. يوسف القرضاوى "الخصائص العامة في الإسلام " مكتبة وهبة ص ٥٨

ويفصل المجمل في الكتاب بالمفصل من السُّنة ، ويستظهر الخفي منه بالجلي منها ، والبحث عن علل الأحكام الظاهرة ليقيس غير المقرر على المقرر منها ، وغير ذلك من عمل المجتهد في استنباطه من الكتاب والسنة وأخذه بالقياس وانتظامه في سلك الإجماع التي هي أصول الدين على أنه شرع الله الذي بسطه فيها وحصره في دائرتها . أستغفر الله أن يكون في ديننا ما لا يحتمله العقل ولا يسعه تصوره ، بل نحن قررنا أن العقل السليم مستحسن لكل ما جاء به الدين الحكيم مستهجن لكل ما نهى عنه الشرع القويم" (١)

مفهوم البدعة عند النصيين والمتدبرين

إن من دعاة الإسلام من يعدُّ كل إبداع بدعة وكل مستحدث ضلالة ، وكل مجتهد مُبْتَدِع خارج من الملَّة !

يقول القرطبي في تفسير قوله تعالى ﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [البقرة : ١١٧]

كل بدعة صدرت من مخلوق فلا يجوز أن يكون لها أصل في الشرع أولاً ، فإن كان لها أصل كانت واقعة تحت عموم ما ندب الله إليه وخص رسول عليه، فهي في حيز المدح. وإن لم يكن مثاله موجودا كنوع من الجود والسخاء وفعل المعروف، فهذا فعله من الأفعال المحمودة، وإن لم يكن الفاعل قد سبق إليه. ويعضد هذا قول عمر رضي الله عنه: نعمت البدعة هذه، لما كانت من أفعال الخير وداخلة في حيز المدح، وهي وإن كان النبي ﷺ قد صلاها إلا أنه تركها ولم يحافظ عليها، ولا جمع الناس، عليها، فمحافظة عمر رضي الله عنه

---

(١) طه البشري " مجلة المنار " ج ٩ ص ٧٧١ .

عليها، وجمع الناس لها، وندبهم إليها، بدعة لكنها بدعة محمودة ممدوحة. وإن كانت في خلاف ما أمر الله به ورسول فهي في حيز الذم والإنكار" (١)

إن من أكبر ما ابتليت به الأمة فهمها الخاطئ للبدعة فليس كل بدعة ضلالة وليس كل جديد مستنكر بل المُبْدِع رجل مجتهد مفكر متدبر أعمل عقله وسخر علمه في إنشاء ما لم يسبق إليه بشرط أن يكون هذا الإبداع لا يخالف القرآن الكريم ولا صحيح السنة وعلى هذا يكون الخلفاء الراشدون مبدعين ، وابن عباس مبدع ، وأبو حنيفة مبدع، والقرطبي مبدع ، وابن حزم مبدع ، والنووي مبدع ، والغزالي مبدع، وابن حجر مبدع، وغيرهم من كبار العلماء المجتهدين وكل علماء الطبيعة والفلك والرياضيات مبدعون وإن أخطأ أحدهم ، وكل ابن آدم خطاء ، فله أجر كما بين ذلك الرسول ." إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر واحد . "

[متفق عليه]

وينطبق هذا القول على من له أهلية الاجتهاد من العلماء .

وقال جمهور أهل السنة وهو المحفوظ عن مالك وأصحابه رضي الله عنهم: إن الحق في مسائل الفروع في الطرفين، وكل مجتهد مصيب، والمطلوب إنما هو الأفضل في ظنه، وكل مجتهد قد أداه نظره إلى الأفضل في ظنه؛ والدليل على هذه المقالة أن الصحابة ومن بعدهم قرر بعضهم خلاف بعض، ولم ير أحد منهم أن يقع الانحمال على قوله دون قول مخالفه .(٢)

---

(١) تفسير القرطبي ج٢ ص ٨٧

(٢) تفسير القرطبي ج ١١ ص ٣١٠ .

أنواع البدعة

قال ابن عبد السلام: في أواخر " القواعد " البدعة خمسة أقسام :

" فالواجبة " كالاشتغال بالنحو الذي يفهم به كلام الله ورسوله لأن حفظ الشريعة واجب، ولا يتأتى إلا بذلك فيكون من مقدمة الواجب، وكذا شرح الغريب وتدوين أصول الفقه والتوصل إلى تمييز الصحيح والسقيم.

" والمحرمة " ما خالف السنة من القدرية والمرجئة والمشبهة .

" والمندوبة " كل إحسان لم يعهد عينه في العهد النبوي كالاجتماع عن التراويح وبناء المدارس والربط والكلام في التصوف المحمود وعقد مجالس المناظرة إن أريد بذلك وجه الله .

" والمباحة " كالمصافحة عقب صلاة الصبح والعصر، والتوسع في المستلذات من أكل وشرب وملبس ومسكن .

وقد يكون بعض ذلك مكروهاً أو خلاف الأولى والله أعلم " (١)

إن حجة النصيين الحرفيين ومن سار على نهجهم من المسلمين أن كل ما لم يفعله السلف الصالح يعد بدعة ضالة ، ولعمري إن هذا الفهم السقيم لهو البدعة الضالة .

وقد نبَّه الشاطبى إلى هذه الحقيقة بوضوح ؛ فقد جعل أول أسباب الابتداع والاختلاف المذموم المؤدى إلى تفرق الأمم شيعاً وجعل بأسها بينها شديد : " أن يعتقد الإنسان في نفسه ، أو يُعْتَقَد فيه ، أنه من أهل العلم والاجتهاد في الدين وهو لم يبلغ تلك الدرجة فيعمل على ذلك ويعد رأيه رأيا ، وخلافه خلافاً ، ولكن تارة يكون ذلك في جزئي وفرع من

(١) ابن حجر العسقلاني " فتح الباري " ج ١٣ ص ٢٥٤ .

الفروع ، يعنى فروع الدين ، وتارة في كلى وأصل من أصول ، من الأصول الاعتقادية أو من الأصول العملية ، فتراه آخذا ببعض جزئيات الشريعة في هدم كلياتها ، حتى يصير منها ما ظهر له بادي رأيه من غير إحاطة بمعانيها ولا رسوخ في فهم مقاصدها ، وهذا هو المبتدع وعليه نبَّه الحديث الصحيح أنه قال : لا يقبض الله العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا " (١) ونحن نقول ما ابتدع عالم قط ولكنه استفتى من ليس بعالم .

قال مالك بن أنس بكى ربيعة بكاءً شديداً فقيل له : مصيبة نزلت بك؟ فقال : لا... ولكن استفتى من لا علم عنده) .

والحق أن نصف العلم ، مع العجب والغرور ، يضر أكثر من الجهل الكلى مع الاعتراف ؛ لأن الجهل بسيط ، وذلك جهل مركب وهو جهل من لا يدرى ، ولا يدرى أنه لا يدرى . (٢)

على يد من قامت الحضارة الإسلامية ؟

والتاريخ الإنساني العام خير شاهد على ذلك فما تقدمت أمة إلا وكان المفكرون المبدعون هم طليعتها ، وما تخلفت أمة إلا وكان المقلدون الجامدون قادتها .

ولن نذهب بعيداً فالحضارة الإسلامية على يد من قامت ؟ وعلى يد من انهارت ؟

لقد قامت الحضارة الإسلامية على يد رجال أعملوا عقولهم فأحسنوا فهم دينهم ودنياهم فآمنوا وعملوا الصالحات وكان معظمهم ينتمون

(١) أبو اسحاق الشاطبى " الاعتصام " ج ٢ص ١٧٣ .
(٢) د. يوسف القرضاوى " الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف " ص ٦٣

لحضارات قديمة ذات صبغة علمية عقلية – كالحضارة المصرية القديمة والبابلية والفارسية – ووجدوا في الدين الجديد ما كان ينقصهم من الهدى والرشاد ، وإذكاء لما عندهم من عقل وذكاء فصنعوا حضارة عظيمة لا يفتأ غير المسلمين يعترفون بها حتى الآن .

فلما غَلَبتْ روح التقليد والتكرار وأغلق باب الاجتهاد غربت شمس الحضارة الإسلامية لتشرق على أوروبا في بداية القرن السادس عشر ، وما تقدمت أوروبا إلا بعد أن كفرت بعبادتها للقدماء كأرسطو وبدأ علماؤها ومفكروها ينظرون للأمام ويعملون عقولهم ويدرسون الحضارة الإسلامية ويطورونها فتقدموا وتخلفنا ، نظروا للأمام ونظرنا للخلف ، فاخروا بأنهم يصنعون حضارة حديثة وافتخرنا بأننا كنا أصحاب حضارة قديمة ، ويوم أدركنا أننا تخلفا قلنا نقلد أجدادنا علَّنا نتقدم مثلهم ونسينا أن سر تقدم أجدادنا أنهم لم يقلدوا آباءهم بل أعملوا عقولهم واهتدوا بقرآنهم وسنة نبيهم .

فزاد تخلفنا لأننا اتخذنا مقلدينا أئمة وحاربنا مفكرينا ومبدعينا مع أن الحضارة الإسلامية ما قامت إلا على أكتاف هؤلاء المفكرين المبدعين .

العقل والغيب

لقد فتح الله تعالى الباب واسعاً أمام العقل ليكتشف سنن الله تعالى في خلقه ، ويسخر القوانين التي تسير الكون في نفعه ، وأراحه من عناء البحث فيما لا مجال للعقل فيه من الغيبيات التي لا يعلمها إلا الله وحده:

﴿ وعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام : ٥٩]

وسد الله تعالى على المؤمن باباً من أبواب الضلال الذي أفنى خلق كثير من الفلاسفة أعمارهم في الوصول إلى حقيقة من حقائقه بعيداً عن دين الله فما زادت عقولهم إلا جهلاً وما زادت قلوبهم إلا ضلالاً إنه باب علم الغيب .

﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴾ [الجن : ٢٦- ٢٧] حتى الأنبياء والمرسلون ، فما بالك بمن دونهم ، لا يعلمون من الغيب شيئاً إلا ما أطلعهم الله تعالى عليه وهذا هو أعظم البشر أجمعين يقول :

﴿ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف : ١٨٨]

والغيب ما لا يدرك بالحواس ، والحواس هي منافذ العقل ولقد ضلَّ كل من بحث في الغيب بعقله من فلاسفة اليونان ومن نهج نهجهم لذا وجه القرآن الكريم المسلم إلى ما تدركه حواسه في الكون ليبحث فيه فهو مجال علمه ، وأن يؤمن بما أخبره الله تعالى به من الغيب .

ثانياً : دور العقل في فهم كتاب الله المشهود (الكون)

القرآن حافل بالآيات الداعية للبحث في الكون اللافتة إلى بديع صنع الله .

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاء مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ١٦٤]

﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً * وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتاً * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطاً * لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً ﴾ [نوح : ١٦ – ٢٠]

فالله تعالى يأمرنا بدراسة القمر ، وهناك سورة باسمه ، فهل صعدنا للقمر ودرسناه ؟!

ويأمرنا أن ندرس الشمس ونستفيد من نورها وحرارتها فهل استفدنا من أشعتها وطاقتها ؟!

ويلفتنا إلى أنه سبحانه خلق الإنسان من طين الأرض ، فهل حللنا عناصر التربة وعناصر الإنسان وقارنا بين هذه العناصر وتلك ليزداد يقيننا بالله تعالى ؟!

هل درسنا الأرض وكيف ﴿قدر فيها أقواتها﴾ وما فوقها من أحياء ﴿وما تحت الثرى﴾ من كنوز .

من المؤسف أن كثيراً من المسلمين تركوا كل هذا لأعدائنا لكي يستطيلوا به علينا، وشغلوا أنفسهم بأمور غيبية نهانا رسول الله عن بالبحث فيها ، لقد اشتغل كثير من المسلمين قديماً وحديثا بقضية ذات الله تعالى وصفاته وأقحموها على أصول الدين وشغلوا الناس بها عن البحث في الكون وتدبر آيات الله فيه ، وأصبحت هذه القضية المنهي عن البحث فيها من أهم مباحث العقيدة ، ومن أهم أسباب تمزيق المسلمين شيعاً وأحزاباً وكان الأولى السكوت عنها فلقد نهانا النبي عن التكلم فيها بل عن نهانا عن مجرد التفكير فيها ، وسكت الصحابة عنها فلم يؤثر عن الصحابة ولا عن التابعين لهم بإحسان فيها شيء .

وكثيرة هي الآيات التي يأمرنا جلَّ وعلا فيها بالبحث في الكون وكشف سننه ومن المؤسف أننا تركنا البحث في الكون وسننه لأعدائنا ؛ فتقدموا وتخلفنا ، واحتلوا أرضنا واكتفينا نحن بالدعاء عليهم !!

إن آيات الله في الكون لا يدركها كليل البصر ، ولا يتدبرها ضعيف العقل ، ولا يؤمن بها أعمى القلب وهم للأسف كثيرون في قومنا !!

﴿ إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاء مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الجاثية : ٣-٥]

والمحجوبون عن رؤية آيات الله في الأنفس وفي الآفاق نماذج رديئة للإسلام وفتنة عنه ولو أطالوا القراءة وتحريك الشفاه .

ولو درسنا آيات الله في الآفاق لزاد إيماننا به تعالى ولا نصلح حالنا في الدنيا .

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت : ٥٣]

ويلفتنا الله تعالى إلى ما في الأرض من كنوز ، وما في أنفسنا من إعجاز ، لكننا أهملنا علوم الزراعة والري ، والهندسة ، والجيولوجيا ، والبترول والتعدين ،... كما أهملنا علوم الطب والطبيعة ، وعلوم الإنسان حتى جاء علماء الغرب فاستولوا على خيرات أرضنا ،وأجهزوا على ثرواتها ، وعشنا نحن عالة على علومهم الغث منها والسمين .

﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾

[الزاريات : ٢٠ – ٢١]

إن الـذاكرين لله حقـاً لـيس أولئـك الـذين يـرددون أوراداً لا تتجـاوز حناجرهم إنما أولئك الذين يتدبرون هذا الكون العظيم ويستنبطون أسراره التي أودعها الله تعالى فيه ويسخرونها لنفع الناس وتردد ألسنتهم أمام إبداع الخالق جل وعلا ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك .

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَآ مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾
[آل عمران : ١٩١]

ومن هدى الآيات يتضح لنا أن الكون هو ميدان الإبداع والاكتشاف ، والاختراع، وأن بحث المؤمن في الكون عبادة ، وتدبره فيه خشية .

تأمل هذه الآيـة العجيبـة التـي تجعل خشية الله تعالى محصورة فـي العلماء وفي مقدمتهم علماء الكون من المؤمنين بالطبع .

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٧ – ٢٨]

إذا كان ذلك كذلك فأين علماء المسلمين في علوم الكون المختلفة ؟! ماذا بعد هذه الآيات من دعوة لكي يغزو المسلم الفضاء ويكشف أسرار السماء ؟!

ماذا بعد هذه الدعوة لكي يركب المسلم الماء ، ويدرس ما فيه من أحياء ؟!

ماذا بعد هذه الدعوة لكي يضرب في الأرض و يدرس الحيوان والتربة والنبات ، ويخترق الأرض و يخرج ما فيها من معادن وثروات ؟!

إنه إن عمّرَ الكونَ وعَبَدَ اللهَ ، فاز بنعيم الدنيا وأرضى مولاه ، أي فاز بحسنتي الدنيا والآخرة .

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة : ٢٠١]

فجمعت هذه الدعوةُ كلَّ خير في الدنيا، وصرَفت كلّ شر فإن الحسنة في الدنيا تشملُ كلّ مطلوب دنيوي، من عافية، ودار رحبة، وزوجة حسنة، ورزق واسع، وعلم نافع، وعمل صالح، ومركب هنيء، وثناء جميل، إلى غير ذلك مما اشتملت عليه عباراتُ المفسرين، ولا منافاة بينها، فإنها كلها مندرجة في الحسنة في الدنيا. وأما الحسنة في الآخرة فأعلى ذلك دخول الجنة وتوابعه من الأمن من الفزع الأكبر في العَرَصات، وتيسير الحساب وغير ذلك من أمور الآخرة الصالحة، وأما النجاة من النار فهو يقتضي تيسير أسبابه في الدنيا، من اجتناب المحارم والآثام وترك الشبهات والحرام (١) .

وهذا الدعاء من أجمع الأدعية، ولهذا كان أكثر دعاء النبي ﷺ كما ثبت في الصحيحين.

عن أَنَسٍ، قَالَ: " كَانَ أَكْثَرُ دُعَاءِ النَبِيِّ ﷺ : اللَّهُمَّ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ" [متفق عليه]

فبالإيمان الصادق والعلم النافع والعمل الصالح يجمع الإنسان بين ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة كما فعل سلفنا الصالح الذين آمنوا وعملوا الصالحات فدانت لهم الدنيا : شرقاً وغرباً ، وانتشر دين الله في سائر البقاع ، وانتفع بعلمهم سائر الأصقاع .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٥٥٨

﴿فَآتَاهُمُ اللّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران : ١٤٨]

كما يرفع الله تعالى درجات العلماء في الدنيا والآخرة .

﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة : ١١]

وجاء " في الصحيح أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يقدم عبد الله بن عباس على الصحابة، فكلموه في ذلك فدعاهم ودعاه، وسألهم عن تفسير { إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ } (النصر: ١) فسكتوا، فقال ابن عباس: هو أَجَلُ رسول ﷺ أعلمه الله إياه. فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم " [١]

إن دراسة الكون نهج قرآني واضح ، لبناء الإيمان : أولاً : ولدعمه وحراسته . ثانياً: ولمنافع البشر ومتاعهم . ثالثاً : ومع ذلك فإن أجيالاً كثيفة أغلقت مشاعرها دون هذه الدارسة . [٢]

ثالثا : **دور العقل في دراسة ، واستخلاص العبرة من التاريخ .**

أمرنا الله تعالى بأن ندرس تاريخ من سبقونا لنأخذ منه العبرة ونستفيد من إصلاحهم ولا نكرر أخطاءهم ، ولعمري إن في دراسة التاريخ لفوائد جمة وعبرة لمن يعتبر .

يقول تعالى ﴿قُلْ سِيرُوا في الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ [العنكبوت:٢٠]

ولم يكتف الله الرحمن الرحيم بأمرنا بالبحث في تاريخ من سبقونا بل أمرنا أيضاً بدراسة آثارهم الباقية .

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٧ ص ٣٠٠ .

(٢) محمد الغزالي " المحاور الخمسة للقرآن الكريم " دار الصحوة للنشر والتوزيع ص ٧٠

﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾
[الصافات : ١٣٧- ١٣٨]

كانت قريش تمر وهي في طريقها إلى الشام بمدائن قوم لوط لذا أمرهم الله تعالى بدراسة هذه الآثار وتاريخ هذه القرية ليستخلصوا منها العبرة ولا يكونوا أمثالهم فالعاقل من اتعظ بغيره .

﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ التي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَ فلم يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾
[الفرقان:٤٠]

فلم يَكُونُوا يَرَوْنَهَا : أي في أسفارهم ليعتبروا .

﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى الأَوْتَادِ﴾ [الفجر : ١٠]

والأوتاد : الآثار ذات الدعائم المشدودة إلى الأرض بقوة مثل المسلات وغيرها.

أ ليس عاراً على المصريين أن تظل آثارهم خرساء حتى يأتي الأجنبي – شامبليون – فيستنطقها ؟!

أما كان أولى بنا أن نتعلم لغة أجدادنا ونفهم ما تركوه لنا من حضارة شهد لها التاريخ بالخلود ، والعالم بالعبقرية ؟!

ويحدثنا القرآن الكريم عن ثمود (قوم نبي الله صالح) وعن آثارهم .

﴿وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾ [الحجر : ٨٢]

﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ [الفجر : ٩]

وبعد أن كذبت ثمود نبي الله صالح وعقروا الناقة أهلكهم الله تعالى .

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا وَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ [الشمس : ١١- ١٥]

وظلت بيوتهم شاهدة عليهم وعبرة للعقلاء من بعدهم .

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾
[النمل : ٥٢]

ولم يكتف الله عز وجل بأن أمرنا بدراسة تاريخ الإنسانية وآثار القدماء بل قص علينا قصصا كثيرة من حياة الأمم .

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف : ٣]

ومعنى القص ليس مجرد الحكاية تروى للتفكه أو لشغل الفراغ ، إنما القصص يرويها القرآن لنتتبع أثرها بما توفر لدينا من علوم ومعارف ، ونستخلص منها الحكمة و المعرفة.

فكم من العلوم والمعارف سوف نجنيها إذا بحثنا بحثا علميا دقيقا للآثار الفرعونية مثلا .

وهذا هو معنى القصص كما جاء في القرآن الكريم ومعاجم اللغة " قَصَصْت الشيء إذا تتبّعْت أَثره شيئاً بعد شيء؛ ومنه قوله تعالى: وقالت لأُخْته قُصّيه؛ أَى اتّبِعى أَثَرَه "(١)

ويوضح الله تعالى الهدف من القصص فيقول :

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [يوسف : ١١١]

تأمل معي هذه الآية العجيبة التي توضح لنا الهدف من دراسة تاريخ الإنسانية، وهو العِبْرة أتدرى ما معنى العبرة ؟

العبرة هي : " العَجَب. واعْتَبَر منه: تعجّب. وفي التنزيل: فاعْتَبِرُوا يا أُولى الأَبصار؛ أي تدبّروا وانظُروا ، والعبرة : كالمَوْعِظة مما يَتّعِظُ به

(١) مادة قصص في معجم لسان العرب .

الإنسان ويَعمَلُ به ويَعتبِر ليستدل به على غيره. والعِبْرة: الاعتبارُ بما مضى " [١]

ومَن هؤلاء الذين يتدبرون التاريخ ويستدلون به على غيره ؟

يجيبك القرآن الكريم : ﴿عِبْرَةٌ لأُوْلِى الأَلْبَابِ﴾

وأولو الألباب الذين يعرفون أن طبيعة الإنسان واحدة منذ خلقه الله تعالى – وإن كانت معارفه متنامية – وأن على العاقل أن يتعظ بغيره حتى يدرك ما أدرك من نجاح ويتجنب ما أصابه من فشل ، والاتعاظ غير التقليد.

فإذا كان الاتعاظ يدفع للأمام فإن التقليد يشد للخلف .

والقرآن الكريم يجعل السبب الرئيسي في هلاك الأمم والشعوب السالفة هو الظلم، والظلم أنواع كثيرة كما بينا ذلك في موضع سابق .

﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِي ظَالِمَةٌ فَهِي خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [الحج : ٤٥]

والناظر في تاريخ الأمم والشعوب يجد أنه ما عزت أمة إلا بسلطان وما ذلت إلا بظلم ، وما تكامل بناؤها إلا بدين .

﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ﴾ [الرحمن : ٣٣]

السلطان : هو الحجة والبينة كما يعنى القوة ،و القهر[١] أي لن تستطيع أمة من الأمم أن تبسط سلطانها إلا بِحجة علمية ، أو قوة عسكرية ، أو كلاهما معاً .

---

(١) مادة عبر في معجم لسان العرب .

فإذا كان الهكسوس والتتار والرومان مثلاً [٢] ، قد بسطوا سلطانهم بالقوة وحدها فإن اليونان ، والبلاد الأوربية الحديثة ، وأمريكا المعاصرة قد بسطت سلطانها بالعلم والقوة جميعاً .

لكن الحضارة الفرعونية ، والحضارة الإسلامية [٣] إنما كان سبب تحضرها وقوتها هو الدين الذي يشمل فيما يشمل على قوة العقيدة وقوة الأخلاق وقوة العلم إلى جانب القوة العسكرية .

رابعاً : دور العقل في فقه الواقع

أما عن دور العقل في فهم الواقع فقد أعطى الإسلام العقل مجالاً واسعاً في فهم الدين في ضوء الواقع مما جعل الدين الإسلامي يمتاز عن غيره من الأديان أنه يجمع بين الاستفادة من خلاصة ما أبدعه البشر من علوم نافعة في فهم كتاب الله وسنة نبيه فأن هذا الدين العظيم غير مبتوت الصلة بأحوال الناس ومصالحهم في كل زمان ومكان ولِمَ لا .. وهو الرسالة الخاتمة وآخر بيان من الله تعالى لخلقه جميعا ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾
[آل عمران : ١٣٨]

ولِمَ لا.. ورسول الله مبعوث رحمة للعالمين ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧]

ومبعوث لكافة البشر من عرب وعجم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ : ٢٨]

---

(١) انظر مادة سلط في لسان العرب ، والقاموس المحيط .
(٢) في بداية دولتهم وقبل تأثرهم باليونان علمياً وثقافياً .
(٣) ربما تكون هناك حضارات أخرى تشترك معهما لكن لا تتوفر لدى معلومات كافية للحديث عنها مثل حضارة ما بين النهرين .

لذا فإن هذا الدين العظيم يراعى أحوال الناس في كل زمان ومكان بفضل العلماء الذين يجددون للإسلام شبابه " إنَّ اللهَ يبعَثُ لهذه الأُمَّةِ على رأسِ كلِّ مائةِ سنةٍ مَن يُجَدِّدُ لها دينَها "

[أبو داود والحاكم والبيهقي]

هؤلاء العلماء الذين قال الرسول فيهم : " لن تزالَ طائفةٌ من أُمَّتي على الحقِّ مَنصورينَ لا يضُرُّهُم مَن خالفَهم حتَّى يأتيَ أمرُ اللهِ عزَّ وجلَّ " [صحيح ابن ماجه]

هؤلاء العلماء أمناء الله على خلقه لأن الله تعالى فقههم في الدين وبصرهم بأحوال الناس " مَن يُرِدِ اللَّهُ به خَيْرًا يُفَقِّهْهُ في الدِّينِ، ولا تَزالُ عِصابَةٌ مِنَ المُسْلِمِينَ يُقاتِلُونَ علَى الحَقِّ ظاهِرِينَ علَى مَن ناوَأَهُمْ، إلى يَومِ القِيامَةِ " [متفق عليه]

هؤلاء العلماء الذين ورثوا الفهم الصحيح للدين عن النبي ﷺ في فهمه الدين والدنيا فقد كان النبي عالماً بأحوال بالناس ليس المسلمين فحسب بل عالماً بأحوال الأمم المختلفة والملوك وإلا فكيف عرف أن في الحبشة ملكاً لا يظلم عنده أحد لذا وجه الهجرة الأولى إليه ولم يوجهها لقيصر الروم أو كسرى الفرس .

ونجده ﷺ يختار المدينة مكاناً لهجرته، ويتعامل مع جميع الأطراف الموجودة فيها وحولها بأسلوب يناسب أحوالها . وعندما أرسل ﷺ معاذاً إلى اليمن قال له : " إنَّكَ سَتَأْتي قَوْمًا أهْلَ كِتَابٍ " [متفق عليه] وهذا من إدراكه ﷺ واقع كل بلد وما يحتاج إليه؛ ولذلك قال له:" فَإِذَا جِئْتَهُمْ، فَادْعُهُمْ إلى أنْ يَشْهَدُوا أنْ لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ، وأنَّ مُحَمَّدًا رَسولُ اللَّهِ "

[متفق عليه]

وكذلك نلمس عمق هذا العلم في غزواته ، ورسائله إلى الأمم والملوك والقبائل. وكذلك يبرز هذا الجانب في استقباله للوفود، وتعامله معهم، وإنزاله للناس منازلهم .

إن لم يكن هذا هو الذروة في فقه الواقع فأين يكون ؟

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ [الأحزاب :٢١]

ومن أقوى الأدلة على عناية الكتاب والسنة بفقه الواقع قصة الفرس والروم ، وفيها يبرز اهتمام الصحابة أيضا بهذا العلم ، وإدراكهم لأهميته، والقصة كما وردت في سورة الروم، أنه قامت حرب بين فارس والروم، فانتصر الفرس على الروم، وهنا حزن المسلمون لهذا الأمر، فقام أبو بكر رضي الله عنه وراهن أحد المشركين على انتصار الروم على الفرس، وحدد لذلك أجلا قصيراً .

فأخبر أبو بكر رضي الله عنه الرسول ﷺ بذلك فأقره، وأمره بزيادة مدة الأجل إلى عشر سنين، ففعل أبو بكر، وجاءت الآيات في سورة الروم ﴿الم غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الروم : ١- ٥]

ويبرز فقه الواقع في هذه القصة فيما يلي :

١- أن القصة بين فريقين ليسا مسلمين ومع ذلك خلدها القرآن الكريم؛ لأثرها المباشر على حياة المسلمين .

٢- اهتمام المسلمين بهذه القضية، وحزنهم عندما انتصرت فارس، وفرحهم عندما انتصر الروم.

٣- معايشة أبى بكر لهذه الأحداث، والمراهنة على انتصار الروم.

٤- إقرار الرسول ﷺ لأبى بكر بل طلبه أن يمد في الأجل لأن (البضع) إلى عشر سنوات . والقضية ليست قضية سياسية بحتة كما يتصور كثير من الناس ، بل هي قضية مبدأ ، فانتصار الملحدين على أهل الكتاب يؤثر على المسلمين ، وانتصار أهل الكتاب دليل على انتصار الحق على الباطل ، وهو مؤذن بانتصار المسلمين على أهل الكتاب بعد ذلك ؛ لأنهم هم الذين على الحق .

نتائج جهل المسلمين بالواقع

ونحن نعيش في واقع سريع التغير كثير التقلب فعلى مستوى العلمي لا يكاد يوم يمر إلا وأتى باكتشاف جديد أو بعلم فريد . وعلى المستوى الاقتصادي فإن التغير فيه أسرع ، والصراع فيه أشد ، أما على المستوى السياسي والعسكر فالأمر أخطر والخطب أفدح .

إن الجهل بالواقع وعدم إعمال العقل واستخدام أحدث الوسائل التكنولوجية قد جعلنا غنيمة لأعدائنا ومجالاً لاستثمارهم على جميع المستويات ، فقد أصبحنا البقرة الحلوب التي يتصارعون عليها .

فعلى المستوى الاقتصادي سيطر الغرب الصليبي على جميع مواردنا وباعونا جميع منتجاتهم ، فاغتنوا وافتقرنا ، وتقدموا وتخلفنا ، وأصبحنا عالة على جميع ما ينتجون من الإبرة إلى الصاروخ ولو تلفت أحدنا حوله ليجد معظم ما حوله - إن لم يكن كل - من إنتاج الغرب فالثياب التي نلبسها ، والأجهزة التي نستخدمها ، ووسائل المواصلات التي نركبها ، والأسلحة التي نتسلح بها ، وكثير من المطعومات والمشروبات التي نأكلها من الغرب ...

والحقيقة أن الفقيه لا بد له من أن يعيش واقعه ويطالع الجديد في العلوم الطبيعية والحكمية فمجموعة العلوم إنسانية والاجتماعية والتاريخية، التي لا يرى النصيون الحرفيون فائدة منها ، لم تعد تنفع معها النظرة العابرة، أو الملاحظة الآنية، أو الأُمنية المخلصة. حتى أنه يمكن القول: بأن وسائل وأدوات سبر حقيقة المجتمع، وكشف خفاياه، ومعرفة واقعه، وتحديد وجهاته، أصبحت علوماً. فعلم الإحصاء وحصر الإمكانات والاستطلاعات والمسح والبحث الاجتماعي بوسائل منهجية للتقويم والقياس لم يعد أرقاماً جامدة، وإنما يعبر عن مؤشرات ويحمل دلالات لا يمكن تجاهلها عند أي دراسة أو تخطيط أو تجديد أو تنمية للموارد البشرية والمادية.. فلم يعد علم الإحصاء أداة ووسيلة، وإنما أصبح مقوماً لا يمكن تجاوزه.

حتى أن استطلاع الرأي والتعرف على التحولات الاجتماعية وأسبابها، أصبح علماً وفناً، لا يقتصر على قراءة الحاضر وإنما يتجاوز إلى التأثير فيه والتوجيه له. وليست الاستبيانات وفنية وضعها وما يطرح فيها من أسئلة، وما يتوصل إليه من نتائج، بأقل شأنًا في فقه الواقع وامتلاك مفاتحه، والدخول إليه من أبوابه، بعيداً عن المجازفات والخبط الأعشى. إن علوم فقه الواقع اليوم أشبه بالحواس والنوافذ العقلية للحركة الإنسانية، والأمة التي تفتقدها في عالم اليوم أمة تعيش فيما يشبه مدارس الصم والبكم. (١)

شروط من يفتي الناس

وكان من شروط المفتي أن يكون عارفًا بأعراف بلده وزمانه وعادات أهله، حتى إن ابن عابدين قال: " من لم يكن عالمًا بعادات أهل زمانه فهو جاهل " .

(١) أحمد بوعود " فقه الواقع (أصول وضوابط) مكتبة مشكاة الإسلامية ص ١٥ ، ١٦

إن تغير الزمان والمكان أو أحدهما يعني تغير الواقع.

وما يكون محققًا لمصلحة في زمن ما قد لا يحققها في آخر، وما يحقق مفسدة في زمن ما قد لا يحققها في زمن آخر.. وقد رأينا من ذلك إسقاط عمر رضي الله عنه سهم المؤلفة قلوبهم، عندما رأى أنه وبتغير الزمان، لم يعد يحقق تلك المصلحة، ولم تعد هناك حاجة إلى ذلك.

وإن النظر في الواقع والعلم بمكوناته، في الزمان والمكان، إليه يرجع في تقدير المصلحة وإنشاء الفتوى وتغير المواقف. وقد عقد لهذا ابن القيم فصلاً عنونه: تغير الفتوى بتغير الزمان والمكان والأحوال والعوائد والنيات)، يقرر فيه أن الفتوى، بما بنيت عليه من مصلحة، تتغير بتغير العناصر المذكورة . [1]

والعجيب أن أكثر البلاد تمسكاً – في الظاهر – بالدين هي أكثر البلاد اعتماداً على الغرب في كل حياتها فلا تكاد تنتج شيئاً تستخدمه أو تزرع شيئاً تأكله ، والأعجب أن علماءها لا يكفون عن اتهام حكامنا بأنهم عملاء للأمريكان واتهام علمائنا بالنفاق لأننا عملنا معاهدة مع إسرائيل استرددنا بها أرضنا المحتلة ويشاء الله أن يبتليهم بالأمريكان فلا يكاد صدام حسين يغزو الكويت حتى هرول حكامهم للأمريكان يطلبون منهم العون والمدد باذلين لهم الغالي والنفيس وإذا بهم وهم الأتقياء الورعون يستعينون بالكفار على إخوانهم المسلمين !! وأرسى الأمريكان وحلفاؤهم قواعدهم في البلاد العربية وأخضعوها لسيطرتهم ، وأجبرهم الأمريكان على تغير مناهج التعليم الديني في بلادهم ولم نسمع لعلمائهم صوتا يعارض أو يتهم حكوماتهم بالخيانة والعمالة . ونحن إذ

---

(١) لمزيد من التفاصيل حول المصلحة الرجوع إلى كتابنا " المدارس السلفية " الباب الأول الفصل الخامس " بناء الشريعة على مصالح العباد في المعاش والمعاد " .

نقول هذا ليس من باب الشماتة – فاللهم لا شماتة – فهم إخواننا في الإسلام والعروبة إنما نقوله هذا من أجل أن نتعلم من أخطائنا وألا نكررها وأن نفقه الواقع المر الذي نعيش فيه ذلك الواقع الذي كان في تجاهله ضياع بلاد الإسلام وضياع هيبة المسلمين .

فماذا جنى النصيون الحرفيون من جهلهم بموازين القوى العالمية ومن ملاحقة التطور الحادث في مجالات العلم و التقدم التكنولوجي المتنامي؟ ماذا جنى هؤلاء من إكالة السباب لأعداء الإسلام من الغرب المسيحي أو لعميلتهم في الشرق إسرائيل، ومن إكالة السباب – أي والله السباب – للمسلمين واتهامهم بالخروج على الدين والسير في ركب الغرب الكافر وعدم الحكم بشرع الله كما يفهمونه هم ؟

ماذا جنى هؤلاء من ترديدهم لبعض الأحاديث الشريفة بلا فقه ، ولبعض الآراء لبعض السلف دون وعى ؟

ماذا جنى هؤلاء من عدم فهم الدين الفهم الصحيح العصري واقتصارهم من الدين على إرسال اللحية وتقصير الجلباب ، ولبس النقاب وتحريم التصوير والغناء ... وجعل الحرب حرب دفاع عن هذه الأمور ، وحرب هجوم على من خالفهم فيها ؟

ماذا جنى هؤلاء من عدائهم للمسلمين الذين يختلفون معهم في الرأي ويأخذون بآراء الفقهاء والعلماء التي تتناسب وحياتهم ومعيشتهم ؟

لقد كانت النتيجة الطبيعية لهذه المفاهيم أن انتشر الإرهاب باسم الدين، وانتشر التخلف باسم الدين ، وارتكست الأمة وتراجعت مكانتها ، واحتلت أراضيها وديست كرامتها .

***

آراء علماء النفس والاجتماع في شخصية المتطرف

وقبل أن نتحدث عن أهم المآخذ التي تؤخذ على هؤلاء النصيين الحرفيين ، والتنظيمات الإرهابية نتحدث أولاً عن الأسباب التي دفعت هؤلاء إلى عدم استخدام العقل الصريح في فهم النص الصحيح ، ودفعتهم إلى استخدام القوة في فرض آرائهم السقيمة وسوف نستعين بأهل التخصص في تحليل شخصية المتطرف .

سمات شخصية المتطرف

يقول د. سمير نعيم أحمد (١) " إذا حللنا شخصية المتطرف وفقاً للدراسات النفسية العالمية والمحلية التي أجريت على الشخصية المتطرفة فإننا نجد أنهم يعانون من اضطراب في المستويات النفسية الثلاثة : العقلية أو المعرفية ، الانفعالية ، والسلوكية .

على مستوى العقل

تتسم شخصية هؤلاء المتطرفين بأسلوب مغلق جامد للتفكير أو بعدم القدرة على تقبل أية معتقدات تختلف عن معتقداتها أو أفكارها أو معتقدات جماعتها ، وعدم القدرة على التأمل والتفكير ، وإعمال العقل بطريقة مبدعة ، وبناءة ، وتعطل ملكاتها النقدية ، ويميل مثل هذا الشخص دائما إلى معتقده على أنه صادق صدقاً مطلقاً وأبديّاً وأنه يصلح لكل زمان ومكان وبالتالي لا مجال لمناقشته ولا للبحث عن أدلة تؤكده أو تنفيه ويميل إلى إدانة كل اختلاف معه في الرأي .

---

(٢) أستاذ علم الاجتماع بكلية الآداب – جامعة عين شمس .

على مستوى الانفعالي

يتسم المتطرف بشدة الانفعال والتطرف فيه فالكراهية مطلقة وعنيفة للمخالف أو المعارض للرأي والحب الذي يصل إلى التقديس والطاعة العمياء لرموز هذا الرأي. والغضب يتفجر عاتياً عند أقل استثارة .

على المستوى السلوكي

تتسم هذه الشخصية بالاندفاعية والعدوانية والميل إلى العنف .

فالمتطرف الديني شديد التعصب لدينه ولا يعترف بحرية العقيدة بل وحتى لا يقبل أو يتسامح مع أي تفسير لنصوص دينه سوى تفسيره ، وهو مهيأ دائماً الاستثارة واللجوء إلى العنف .

إذا كانت أنظمة الشخصية التي يفتش فيها عالم النفس عن الخلل المؤدى إلى التطرف أو التسلط هي : العقل، الانفعال ، والسلوك ، فإن أنظمة المجتمع الأساسية التي يتناولها عالم الاجتماع بالتحليل هي : الاقتصاد ، والسياسة ، والتربية ، والأسرة ، والثقافة بمؤسساتها المختلفة.

الأزمة الاقتصادية والتطرف

تؤكد الأدلة التاريخية والمعاصرة على ارتباط ظهور وتنامي التطرف بأشكاله المختلفة وأبرزها جماعات العنف الدينية بالأزمة الاقتصادية .

وتدل الشواهد التاريخية أيضاً على الأزمة الاقتصادية تصيب أول ما تصيب الطبقات الدنيا التي تعانى بشدة من تدهور ظروفها المعيشة بفعل انتشار البطالة وتدهور الخدمات كما أن هناك فئات تثرى وتستفيد من الأزمة ومضاعفاتها وتسلك سلوكا استفزازية بالنسبة للفقراء بثرائها وإسرافها ، ويرتبط التطرف في الفقر بالتطرف في الفكر ويولد الإحباط عدوانا وعنفا وتخلق قسوة الواقع أوهام الخلاص.

وتدل الدراسات الاجتماعية التي أجريت على أعضاء الجماعات الدينية المتطرفة على أن الغالبية العظمى منهم من الشباب ومن الطبقات الدنيا والمتوسطة ومن المناطق الأكثر حرماناً مثل الريف وبخاصة الوجه القبلي والأحياء الشعبية الفقيرة الذين يعانون من البطالة أو انخفاض الدخل والعجز عن توفير متطلبات الحياة الضرورة مثل : السكن ، وكذلك من العجز عن إيجاد حلول لمشكلاتها كالهجرة أو الوساطة أو رفضهم الانغماس في الأنشطة مضادة لقيمهم الدينية كالفساد والرشوة أو الإدمان وكلها صور أخرى للتطرف بمعنى أو آخر...

وترتب على زيادة معدل البطالة والتضخم وغلاء الأسعار وبالتالي حدة التفاوت الطبقي خاصة مع ظهور فئات طفيلية أثريت وانعكست أثار هذا الخلل الخطير على الشباب بخاصة في الطبقات الدنيا ونشأت تربة صالحة للتطرف تزود جماعات العنف السياسي الديني التي تهدد استقرار ومستقبل الأمة بأعضاء يعانون الإحباط وافتقار الشعور بالأمن والأمل في المستقبل فيقعون بسهولة فريسة الانقياد لأوهام الخلاص .

الفراغ السياسي والتطرف

الملاحظ أنه ليس هناك حزب واحد في مصر حتى الآن استطاع أن يحشد الشباب وراء هدف قومي أو من أجل بناء مستقبل واعد كما أن كافة التنظيمات الشعبية تحولت إلى تنظيمات رسمية أو شبه رسمية كالاتحادات والنقابات وأصبحت العضوية فيها شكلية وهنا تأتى التنظيمات السرية أو الجماعات المتطرفة لتملأ الفراغ وحتى لتتغلغل في التنظيمات الرسمية القائمة كالاتحادات الطلابية والنقابات المهنية وتهيئ للشباب فرصة الشعور بالانتماء وتحقيق الذات والقيام بدور ما لتحقيق

هدف أو أهداف مرسومة خاصة وأن هذه الجماعات تقوم بدور فعال في مساعدة أعضائها على حل مشكلاتهم الحياتية أو على الأقل التخفيف من حدتها .

إن شبابنا يفتقد أي فرصة للممارسة السياسية بمعناها الواسع التي تنمى لديه القدرة على إبداء الرأي والحوار حول مسائل عامة أو اجتماعية وتعوده على تقبل الرأي الآخر بعد تحليله ونقده والتنازل عن رأيه إذا اقتنع بغيره وأسلوب الاعتراض المتحضر على الرأي وأدب الحديث .

وهكذا يكون دور الشباب هو دور المشاهد أو المتفرج ليس دور المشارك حتى في الندوات أو اللقاءات السياسية يدعى الشباب لكي يستمع إلى محاضرات الكبار أو يلقن فكرهم وليصفق له ! والمؤسف أن الشباب في الغالب لا يتلقن الفكر ذاته ولكن يتلقن أسلوب هذا الفكر : التطرف والتسلط ويصبح هذا الأسلوب الفكري الجامد مسيطراً عليه في مختلف مجالات حياته ويسهل اجتذابه للتطرف الديني .

أزمة التعليم والتطرف

أفاض الكثيرون من المسئولين والمفكرين في الحديث عن أزمة نظامنا التعليمي التي تتمثل في أنه نظام تلقيني ، يعتمد بصفة أساسية على حشو ذهن الطالب خلال مختلف مراحل الدراسة بمعلومات عليه أن يستظهرها دون إعمال للعقل ودون تحليل أو نقد وهو لا يشجع على تحصيل المعرفة بنفسه من خلال الاحتكاك بالواقع والاطلاع في المكتبات وإجراء البحوث الميدانية ، والتلقين مرتبط دائما بالسلطوية، أي تقبل كل ما تمليه سلطة المعلم وبذلك يصبح من السهل جداً على مثل

هذا التلميذ أن يتقبل كل ما تمليه سلطة أمير الجماعة دون تحليل أو نقد أو معارضة ولو لم تكن هناك جماعات دينية وكان هناك بديل عنها كجماعات فاشية لانخرط فيها خريجو هذا النظام التعليمي ، ففي كل هذه الجماعات يتم تلقين الفكر وتقبله دون تحليل ويسهل الانقياد بفعل إبطال عمل العقل . وقد يكون ذلك تفسيرا لانخراط بعض حملة الشهادات العليا في مثل هذه التنظيمات . ومما يدعم هذا الرأي أيضاً تغلغل التطرف في التنظيمات الطلابية بالكليات العملية كالطب والهندسة أكثر منه في الكليات النظرية كالآداب والتجارة ذلك أن هذه الكليات النظرية تتيح قدراً أكبر نسبيا لطلابها لإعمال الفكر فهو متعرض فيها لنظريات وآراء مختلفة ينقد فيها كل اتجاه الآخر على عكس الكليات العملية التي لم تدخلها العلوم الإنسانية بعد .

وتتمثل أزمة النظام التعليمي أيضاً في نقطتين ترتبطان بتهيئة لظروف التطرف ، الأولى عجزه حتى الآن عن محو أمية ما يزيد على نصف السكان من جهة ، والثانية أنه بدلاً من تزويده لسوق العمالة بالتخصصات اللازمة يزود البطالة بأعداد متزايدة نظراً لضعف الارتباط بينه وبين احتياجات المجتمع .

المؤسسات الثقافية والتطرف

لقد قصرت المؤسسات الثقافية عن أداء دورها الذي أنشئت من أجله .. وتحولت الثقافة من خدمة جماهير تدعمها الدولة إلى سلعة استثمارية تهتم بالربح وبالمظهر أكثر من الفائدة والمضمون . وفي مجال المسرح انحسرت موجة المسارح الشعبية والجماهيرية وتقلص الدور الحكومي الذي كان يزود الشباب بغذاء عقلي وروحي ويوسع

مداركهم بما يعرضه من مسرحيات واقية وبأسعار مقبولة وتحول النشاط المسرحي إلى تقديم الفن هابط ومبتذل . وبالتالي لم تعد الثقافة المسرحية متاحة للقطاع الأعظم من الشباب إما حرماناً أو إحجاماً واحتقاراً ، وينطبق نفس الشيء على السينما وملأ الفكر المتطرف الفراغ الثقافي مثلما ملأت الجماعات المتطرفة الفراغ السياسي أما وسائل الإعلام وخاصة المرئية فهي تعرض لجماهير الشباب صوراً متنوعة وبكثافة عالية للإنفاق البذخي وللمظاهر الاستهلاكية الترفيه فتزيد من حالة الإحباط لديهم كما أنها تعرض نماذج سلوكية وثقافة غريبة أو مبتذلة الأمر الذي يثير نقمة واشمئزاز الكثير من الشبان أو يمثل غواية لهم للانحراف قد يكون التطرف الديني وسيلة دفاعية للاحتماء به منها.

هذا عن المضمون ، أما من حيث الأسلوب فإن وسائل الإعلام تكرس الجمود العقلي والتسلطية وإبطال عمل العقل الناقد فهي تعرض في الغالب الرأي الواحد حتى لو اشترك في عرضه ومناقشته عشرات الأفراد دون أن تتيح فرصة للرأي الآخر وللحوار والنقاش .الأمر الذي يكرس أيضاً القابلية للإيحاء والتلقين وهي خاصية العقلية التي تعتمد عليها الجماعات المتطرفة لاجتذاب أعضائها .

أما الثقافة الدينية التي يتعرض لها أبناؤنا فإنها في حاجة شديدة للمراجعة ويكفي أن نستمع إلى خطبة الجمعة بمساجد الجمهورية المختلفة والتي يلقيها في الغالب أشخاص غير مؤهلين لكي نتعرف على كيفية تكريسها للجمود العقائدي وعدم تمثل الأبناء لتعاليم الدين الإسلامي السمحة ، كما أن مقررات الدين في المدارس في حاجة ملحة للمراجعة .

الأزمة الأسرية والتطرف

تصب كل نتائج الأنظمة السابقة الحديث عنها في الأسرة مهد التنشئة الاجتماعية فالأزمات التي عانتها الأسرة بفعل التضخم والغلاء والبطالة ومشكلات الحياة اليومية القاسية من مواصلات وإسكان وغذاء وملبس وتعليم وصحة وتلوث وضوضاء وفوضى واضطراب وحصار دعائي لسلع وخدمات تثير التطلعات دون إمكانية التحقيق أو الإشباع ، كل ذلك يضع رب الأسرة أو ربتها في دوامة هائلة لا تسمح بالتنشئة السليمة والصحية للأبناء فضلاً عن اضطراره للتسلط في مواجهة الأبناء ومن المعروف أن الأزمة الاقتصادية قد دفعت بأعداد هائلة من أرباب الأسر إلى الهجرة طلبا للرزق . وقد بينت الدراسات الاجتماعية أن الهجرة كانت لها آثار خطيرة على الأسرة ، حيث غياب الأب أو الأم أو كليهما عن الأبناء وما ينجم عن ذلك من انحراف يلجأ البعض للاحتماء منها بالتطرف كما أن هناك أباء يعودون من بعض البلاد وقد تشبعوا هم أنفسهم باتجاهات دينية كانت غريبة عنهم وعن المجتمع المصري هذه العوامل تدفع بالأبناء إلى الذين تغيب عنهم آباؤهم إما إلى الانحراف أو الانتماء إلى جماعات متطرفة عوضا عن الانتماء الأسرى والتماسك الذي يسود الجماعات المتطرفة بديلاً للتماسك المفقود في الأسرة ." (١)

وتضيف د. سهير لطفي إلى تلك الأسباب " الظروف الاجتماعية والسياسية التي مرت بها مصر في تاريخها المعاصر كالصدام – سلسلة الاعتقال التي قام بها الرئيس عبد الناصر للجماعات الدينية – سنة ١٩٥٤م ثم تكرر ذلك سنة ١٩٦٥م وتفسير هزيمة ١٩٦٧م ببعد

---

(١) من مقال د. سمير نعيم أحمد منشور في كتاب "جذور الإرهاب " الهيئة المصرية العامة للكتاب .

المجتمـع عـن الـدين (١) وتـشجيع سـلطة الـسبعينات الفكـر والحركـة الإسلامية في مواجهة التيارات العلمانية السياسية والاجتماعية الأخرى .

والأزمات الاقتصادية التي يعانى منها المجتمع المصري منذ هزيمة ١٩٦٧م وفشل الاتجاهات الاشتراكية والليبرالية في معالجة المشاكل الاقتصادية ، وازدياد معدل التغيير في وسائل الإنتاج وأسلوب الحياة كل ذلك جعل من الدين الإسلامي المأوى الأخير للشباب الذي يبحث عن حد أدنى من الاستقرار والثبات هذا إلى جانب سكوت بعض رجال الدين وعدم إبداء وجهة نظرهم في التيارات الإسلامية وعدم إجراء حوار مع الجماعات الإسلامية الشبابية . وهذا عكس ما كان معروفاً عن دور الأزهر التاريخي إذ يبدى رأيه بوضوح في القضايا الوطنية .

***

(١) لمعرفة المزيد من الأسباب التي أدت إلى ظهور السلفية الجهادية في مصر الرجوع إلى كتاب "المدارس السلفية " للمؤلف فصل " السلفية الجهادية " .

مناقشة آراء المتنطعين

ويمكن أن نلخص أهم المآخذ التي أخذت على المتنطعين في فهم الدين بعامة في الآتي راجين من الله تعالى أن يهدينا وإياهم سواء السبيل :

المذهبية الدينية المفرقة للجماعة

ومما يؤخذ على هؤلاء المتنطعين المذهبية الدينية ذات القالب الجامد الذي لا يقبل الاختلاف ولا التنوع خارجه من مذاهب أخرى أو آراء أخرى مهما كان القائل بها ، ولا عدد المؤمنين بها بل لا يقبل الاختلاف والتنوع داخل المذهب نفسه فهم يقصرون الفهم الصحيح للدين على جماعة بعينها ويحرمون غيرهم حق الاختلاف والزعم أنهم هم الفرقة الناجية ، مما ولد الانقسامات فيها ، وزاد الهوة بينها .

مع أنه من المقرر أنه " لا يجوز حمل الناس على الرأي الاجتهادي ولا يجوز لعالم مجتهد، ولا لإمام عام أن يحمل الناس على رأيه واجتهاده .

وصنف رجل كتاباً في الاختلاف، فقال أحمد: لا تسمِّه كتاب الاختلاف، ولكن سمه كتاب السعة. ولهذا كان بعض العلماء يقول: إجماعهم حجة قاطعة ، واختلافهم رحمة واسعة ، وكان عمر بن عبد العزيز يقول : ما يسرني أن أصحاب رسول الله ﷺ لم يختلفوا لأنهم إذا اجتمعوا على قول فخالفهم رجل كان ضالاً، واذا اختلفوا فأخذ رجل بقول هذا، ورجل بقول هذا كان في الأمر سعة . "[١]

---

(١) ابن تيمية " شرح العمدة في الفقه " ج ٤ ص ٥٦٧

كما أنهم يطلقون على أنفسهم مسميات تمييزاً عن بقية المسلمين : ومن تلك الأسماء التي يطلقونها على أنفسهم : " جماعة جند أنصار الإسلام" و " جماعة شباب المجاهدين " و " جماعة التكفير والهجرة " و" الجماعة الإسلامية " و " جماعة الجهاد " و " تنظيم القاعدة " " الناجون من النار" و " أنصار بيت المقدس " و " تنظيم الدولة الإسلامية " .. مع أن الله تعالى يقول ﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ ﴾
[الحج : ٧٨]

يزكون بهذه الأسماء أنفسهم مع أن الله تعالى نهي عن تزكية الإنسان نفسه ﴿فَلاَ تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ [النجم : ٣٢]

ويحذرنا الله تعالى من التشيع والتحزب وفرح كل حزب بما لديه ، واعتقاده أنه هو الذي على صواب ، وبقية الأحزاب والشيع على باطل.

﴿وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [الروم : ٣٠ – ٣١]

الانغلاق على الذات :

ومن عيوب النصيين الحرفيين الانغلاق على الذات وعدم الانفتاح على المجتمع وعلى الآخرين "وجمود الشخص على فهمه جموداً لا يسمح له برؤية واضحة لمصالح الخلق، ولا مقاصد الشرع ، ولا ظروف العصر ، ولا يفتح نافذة للحوار مع الآخرين وموازنة ما عنده وما عندهم والأخذ بما يراه بعد ذلك أنصع برهاناً وأرجح ميزاناً " (١)

(١) د. يوسف القرضاوى " الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف " ص ٣٩ .

مع أن الباحث عن الحق يجب أن يتهم رأيه وإن كان متأكداً من أنه صواب وأن يضع في الاحتمال أن الحق يمكن أن يكون مع مخالفه، وبهذا الشعور يسهل عليه تقبل الحق عندما يظهر، ويلوح له .

عدم التمييز بين مخالفة الرأي ومخالفة الدين

ومن عوار تفكير بعض النصيين الحرفيين أنهم يعتبرون أن كل مخالف لرأيهم مخالف للدين أو أنه كافر مهدر الدم مستباح المال وهذه بدعة ما قال بهذا سلف أو خلف غيرهم فلقد تعايشت المذاهب الإسلامية جنباً إلى جنب فما اتهم واحد من الأئمة غيره بالفسوق فضلاً على الخروج على الدين أما هؤلاء فقد دأبوا على " اتهام الناس بالخروج من الإسلام أو عدم الدخول فيه أصلاً كما هي دعوى بعضهم وهذا يمثل قمة التطرف الذي يجعل صاحبه في واد وسائر الأمة في واد آخر وهذا ما وقع فيه الخوارج في صدر الإسلام والذين كانوا من أشد الناس تمسكاً بالشعائر التعبدية ، صياماً وقياماً وتلاوة للقرآن ولكنهم أتوا من حيث فساد الفكر لا فساد الضمير زين لهم سوء عملهم فرأوه حسناً وضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ومن ثم وصفهم النبي ﷺ بقوله " يحقر أحدكم صلاته إلى صلاته وقيامه إلى قيامهم وقراءته إلى قراءتهم ومع هذا قال عنهم : " يقرءون القرآن لا يتجاوز تراقيهم " وذكر علامتهم المميزة بأنهم " يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان " (١)

ولعمري إن هذا الوصف يكاد ينطبق على هؤلاء الصنف من النصيين الحرفيين فحروبهم موجهة لإخوانهم من المسلمين المخالفين لهم في الرأي . فكم من الأبرياء تلطخت أيديهم بدمائهم !

---

(٢) نفسه ص ٥٤ .

أما أعداء الإسلام والمسلمين المحتلين أرضه من اليهود عبدة الحياة المادية والغرب المسيحي عبدة الصليب فلم يصب منهم واحد من هؤلاء بأذى .

قال الشاعر عمران بن قحطان في مثل هؤلاء :

أسدٌ على وفي الحروبِ نعامةٌ * ربداءُ تجفلُ من صفيرِ الصافر

وقديماً أسلافهم من الخوارج " قابلوا مسلماً ونصرانيّاً فقتلوا المسلم وأوصوا بالنصراني خيراً وقالوا احفظوا ذمة نبيكم ! " (١)

لقد حكمت جماعات السلفية الجهادية بالكفر على كل من ارتكب معصية وأصر عليها ، ولم يتب منها ، فهم يكفرون الحكام ؛ لأنهم لم يحكموا بما أنزل الله . ويكفرون المحكومين ؛ لأنهم رضوا بهم ، وتابعوهم على الحكم بغير ما أنزل الله .

وهم يكفرون علماء الدين وغيرهم لأنهم لم يكفروا الحكام والمحكومين ، ومن لم يكفر الكافر فهو كافر .

وهم يكفرون كل من عرضوا عليه فكرهم ، فلم يقبله ولم يدخل فيما دخلوا فيه .. لهذا حذر النبي من الاتهام بالكفر فشدد التحذير ففي الحديث الصحيح :

" من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما " [متفق عليه]

فما لم يكن الآخر كافراً بيقين فسترد التهمة على من قالها ويبوء بها وفي هذا خطر وقد صح من حديث أسامة بن زيد أن من قال " لا إله إلا الله فقد دخل في الإسلام وعصمت دمه وماله وإن قالها خوفاً أو

---

(١) د. مصطفي الشكعة " إسلام بلا مذاهب " ص ١٤٨

تعوذاً من السيف فحسابه على الله ، ولنا الظاهر ولهذا أنكر النبي غاية الإنكار على أسامة حين قتل الرجل في المعركة بعد أن نطق بالشهادة وقال : قتلته بعد أن قال : لا إله إلا الله ؟!! قال أسامة : إنما قالها تعوذاً من السيف ؟ قال : هلا شققت قلبه ؟ ما تصنع بـ لا إله إلا الله؟! قال أسامة : فما زال يكررها حتى تمنيت أنى أسلمت يومئذ فقط ..

وكل الشبهات التي استند إليها الغلاة في التكفير مردودة بالمحكمات البينات من كتاب الله وسنة رسوله وهو فكر فرغت منه الأمة منذ قرون، فجاء هؤلاء يجددونه، وهيهات .. " (١)

الجمود وعدم فقه الواقع وتغيير الفتوى

إن أحد هؤلاء السلفيين النصيين لا يعلم من العلوم الحديثة إلا اسمها، ولا يعلم عن التقنيات الجديدة إلا شكلها ، ولا يعلم من الحضارة الحديثة إلا عوارها ، ومع ذلك يفتى الناس على اختلاف جنسياتهم ولغاتهم وثقافتهم وأحوالهم بفتوى واحدة فيما اختلف فيه العلماء والحقيقة أن العيب ليس عيبهم في هذه المرة إنما العيب عيب من استفتى مَن يختلف عنه وعن بيئته وحضارته وعاداته وتقاليده وترك علماء بلده وهم أقدر الناس على إفتائه بما يتناسب وظروف بيئته .

يقول ابن قيم الجوزية " مهما تجدد في العرف فاعتبره ومهما سقط فألغه ولا تجمد على المنقول في الكتب طول عمرك بل إذا جاءك رجل من غير إقليمك يستفتيك فلا تجره على عرف بلدك وسله عن عرف بلده فأجره عليه وأفته به دون عرف بلدك والمذكور في كتبك قالوا فهذا هو الحق الواضح والجمود على المنقولات أبدا ضلال في الدين وجهل بمقاصد علماء المسلمين والسلف الماضين " (٢)

---

(١) يوسف القرضاوى " الصحوة الإسلامية " ص٥٥

(٢) ابن القيم " إعلام الموقعين " ج ٣ ص ٧٨

إن الإمام الشافعي غيَّر مذهبه في مدة وجيزة ، فكان له مذهب جديد، ومذهب قديم ، وأن أصحاب أبي حنيفة خالفوه في أكثر من ثلث المذهب ؛ لاختلاف عصرهم عن عصره ، وقالوا : لو رأى صاحبنا ما رأينا ؛ لقال بمثل ما قلنا أو أكثر ، والإمام أحمد تُروى عنه في المسألة الواحدة روايات قد تبلغ سبعاً ، أو أكثر وما ذلك إلا لاختلاف الأحوال والملابسات ، وتغير الظروف والأوضاع في غالب الأحيان . (١)

أما المتنطعون فلا يكتفون بنقل فتاوى مضى عليها ألف عام أو أكثر قيلت في زمان ومكان وظروف تختلف تماماً عن الواقع الذي يريدون أن ينزلوا إليه الفتوى! بل يعممون الفتوى على كل الناس على اختلاف عوائدهم وأعرافهم فهم يأبون إلا التقليد وإيقاع الناس في الحرج " وقد تجلى ذلك في البحث والتنقيب في حياة السلف وأقوال العلماء الأقدمين عن مرجع لأي أمر جديد، والاستغراق في قياسات جزئية لا تلبى حاجات الإسلام في العصر الحاضر ، ولا تجيب عن الأسئلة الكبيرة والخطيرة التي تواجه المجتمعات الإسلامية اليوم. والنظر بريبة إلى كل اجتهاد جديد لا يجد له مستنداً أو سابقة في حياة السلف .

وربما يجد المرء جذوراً تاريخية لهذا المنزع في تورع بعض العلماء الأقدمين مثل الإمام أحمد والإمام أبى داود من القول بالرأي ، وإيثارهم الأخذ بالآثار الضعيفة على الرأي والاجتهاد . وهو نوع من عدم الاعتراف ضمناً بحدود النص كان ممكناً في عصرهم الذي لا يختلف كثيرا ًعن عصور الإسلام الأولى، لكنه غير ممكن في عصرنا الحالي، نظراً للتغيرات العميقة في مسار الحياة وبنية المجتمعات، مما

---

(١) د. يوسف القرضاوي " من فقه الدولة في الإسلام " مرجع سابق ص ٧ .

يجعل الاعتراف بأن "النصوص متناهية والحوادث غير متناهية" كما يقول الأصوليون أمراً لا محيد عنه " (١)

وهم بذلك يغلقون باب الاجتهاد أمام أهل الاجتهاد المعاصرين من علماء الأمة بل ألغاه بعضهم أمام العلماء منذ القرن الرابع الهجري واكتفوا بما صنفه المجتهدون الأوائل مع أن الاجتهاد سمة مميزة للإسلام قررها القرآن وأكد عليها النبي ومارسها النبي والصحابة والتابعين والعلماء الثقاة في كل العصور . فالمجتهدون هم الذين يجددون لهذا الدين شبابه ولولاهم لما كان هذا الدين صالحاً لكل زمان ومكان وفي ذلك يقول تعالى :

﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ في الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾
[التوبة : ١٢٢]

ويقول النبي : " إنَّ اللهَ يبعثُ لهذه الأمةِ على رأسِ كلِّ مائةِ سنةٍ من يُجدِّدُ لها دينَها " [صحيح أبي داود]

وأنّ رَسُولَ الله ﷺ لَمّا أَرَادَ أنْ يَبْعَثَ مُعَاذاً إلَى الْيَمَنِ قالَ : " كَيْفَ تَقْضِى إذَا عَرَضَ لَكَ قَضَاءٌ ؟ قالَ أَقْضِى بِكِتَابِ الله. قالَ فَإنْ لَمْ تَجِدْ في كِتَابِ الله ؟ قالَ فَبِسُنّةِ رَسُولِ الله ﷺ قالَ فَإنْ لَمْ تَجِدْ في سُنّةِ رَسُولِ الله ﷺ وَلاَ في كِتَابِ الله ؟ قالَ أَجْتَهِدُ بِرَأْيِي وَلاَ آلو ، فَضَرَب رَسُولُ الله ﷺ صَدْرَهُ ، فَقَالَ الْحَمْدُ لله الذي وَفّقَ رَسُولَ رَسُولِ الله لِمَا يُرْضِى رَسُولَ الله". " [رواه أبو داود]

فهؤلاء المقلدون الجامدون لا يجب أن يتصدوا لإفتاء الناس وفي ذلك يقول الشوكاني في كتابه [القول المفيد] " فعندي أن المفتي المقلد لا

---

(١) محمد بن المختار الشنقيطي " مخاض الفكر السلفي " .

يحل له أن يفتي من يسأله عن حكم الله أو حكم رسوله أو عن الحق أو عن الثابت في الشريعة أو عما يحل له أو يحرم عليه لأن المقلد لا يدري بواحد من هذه الأمور على التحقيق بل لا يعرفها إلا المجتهد هكذا إن سأله السائل سؤالا مطلقا من غير أن يقيده بأحد الأمور المتقدمة فلا يحل للمقلد أن يفتيه بشيء من ذلك لأن السؤال المطلق ينصرف إلى الشريعة المطهرة لا إلى قول قائل أو رأي صاحب رأي " .

وللأسف الشديد إن كثيراً ممن يشغلون المناصب العليا في الفتوى في بلادهم إذا سئلوا في فتوى لا يحاولون الاجتهاد من أنفسهم .. بل يفتون ببعض الفتاوى القديمة مهما كانت هذه الفتاوى تتعارض مع روح العصر وفي ذلك كسل عن الاجتهاد أو الخوف من المسئولية وكل ما يفعلونه أن يقولوا لنا هذا رأى الإمام أحمد وهذا رأى ابن تيمية ، وهكذا فهذا المقلد لا يعتبر مفتيا بالمعنى الصحيح بقد ما هو ناقل آراء وخير له أن يترك مهنة الإفتاء للعلماء المجتهدين وهم موجودون بفضل الله في كل زمان وفي ذلك يقول الإمام ابن قيم الجوزية في كتابه إعلام الموقعين " من أفتى الناس بمجرد المنقول في الكتب على اختلاف عرفهم وعوائدهم وأزمنتهم وأحوالهم وقرائن أحوالهم فقد ضل وأضل وكانت جنايته على الدين أعظم من جناية من طبب الناس كلهم على اختلاف بلادهم وعوائدهم وأزمنتهم وطبائعهم بما في كتاب من كتب الطب على أبدانهم بل هذا الطبيب الجاهل وهذا المفتي الجاهل أضر ما على أديان الناس وأبدانهم " (١)

---

(١) ابن القيم " إعلام الموقعين " ج ٣ ص ٧٨ .

زعمهم أن السنة مصحِّحة وناسخة للقرآن

ومما أفسد فهم بعض السلفيين للدين إعراضهم عن القرآن الكريم لا يديمون فيه النظر ولا يتشبعون بروحه ولا يقتفون منهجه وتعظيم ما عظم وتهوين ما هون، فإذا القرآن تحدث عن ألف آية عن التفكير والعلم الشامل ونعى على مقلدي أسلافهم تقليدهم الأعمى فإن السلفي النصي الحرفي يحقِّر من شأن العقل ، ولا يأخذ بالرأي ويغلق باب الاجتهاد ، ويقصر العلم على ترديد ما قاله بعض السلف مع أن القرآن الكريم هو " حجة الله على الناس وأن أحكامه قانون واجب عليهم اتباعه لأنه من عند الله وأنه نقل إليهم بطريق قطعي لا ريب في صحته "[١] والله تعالى أمر الناس بتدبر القرآن ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد : ٢٤]

وحث على وجوب التدبر في القرآن ليعرف معناه. فكان في هذا رد على فساد قول من قال: لا يؤخذ من تفسيره إلا ما ثبت عن النبي ﷺ ومنع أن يتأول على ما يسوغه لسان العرب. وفيه دليل على الأمر بالنظر والاستدلال وإبطال التقليد، وفيه دليل على إثبات القياس .[٢]
ومن أعجب ما يدَّعوه – بهتاناً وزوراً – أن السنة تقضي على القرآن !! ويرون في هذا حديثاً غير صحيح " الْقُرْآنُ أَحْوَجُ إِلَى السُّنَّةِ مِنَ السُّنَّةِ إِلَى الْقُرْآنِ " والحديث الذي روه حديث مقطوع غير صحيح .
أما قول يَحْيَى بْنُ أَبِي كَثِيرٍ " السُّنَّةُ قَاضِيَةٌ عَلَى الْكِتَابِ وَلَيْسَ الْكِتَابُ بِقَاضٍ عَلَى السُّنَّةِ " فقد كفانا إمام أهل السنة أحمد بن حنبل الرد عليه فعن الْفَضْلُ بْنُ زِيَادٍ قال : سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ يَعْنِي أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ ،

(١) علم أصول الفقه " عبد الوهاب خلاف ص ٢٤
(٢) تفسير القرطبي ج٥ ص ٢٩٠

وَسُئِلَ عَنِ الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَى أَنَّ السُّنَّةَ قَاضِيَةٌ عَلَى الْكِتَابِ ، فَقَالَ " : مَا أَجْسُرُ عَلَى هَذَا أَنْ أَقُولَهُ ، وَلَكِنِّي أَقُولُ : إِنَّ السُّنَّةَ تُفَسِّرُ الْكِتَابَ وَتُبَيِّنُهُ " ، قَالَ الْفَضْلُ : وَسَمِعْتُ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ ، وَقِيلَ لَهُ : أَتَنْسَخُ السُّنَّةُ شَيْئًا مِنَ الْقُرْآنِ ؟ قَالَ : " لا يَنْسَخُ الْقُرْآنَ إِلا الْقُرْآنُ " .

أرأيتم جهلاً أكبر من هذا ؟! هل حديث الآحاد الذي لا يفيد إلا الظن العلمي مقدَّم على كتاب الله تعالى القرآن الكريم ، ولا يأخذ من القرآن إلا ما وافقه ؟! بل ينسخ القرآن كذلك هل هذا القول يقوله مسلم موحد بالله ؟ فما بالك إذا صدر من وعاظ يتبعهم الملايين من المسلمين وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي هؤلاء النصيين الحرفيين يقول الشيخ محمد الغزالي " قد ضقت ذرعاً بأناس قليلي الفقه في القرآن كثيري النظر في الأحاديث يصدرون الأحكام ويرسلون الفتاوى فيزيدون الأمة بلبلة وحيرة .." (١)

عدم التزام الأمانة العلمية في النقل وعرض الآراء

بعض السلفيين ينقلون ما يوافق هواهم ، ويغضون الطرف عن أدلة من خالفهم ، بدلاً من عرض آراء العلماء بموضوعية وحيادية ثم مناقشتها مناقشة علمية لا مذهبية ، وترك الناس تختار ما تشاء من آراء العلماء المجتهدين دون الحجر على رأى . أما السلفي النصي الحرفي فينتقى من كتب التراث ما يوافق هواه فإن كان هواه مع ظاهر بعض الأحاديث ، صحيحة أو ضعيفة ، يقول لك لا اجتهاد مع نص ويرد بهذا أقوال الفقهاء الذين تأولوا هذه الأحاديث في ضوء القرآن الكريم ، والسنة المطهرة ، وفهم الصحابة ، وفي ضوء مقاصد الشرع ،

---

(١) محمد الغزالي " السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث " ص ٢٠

وفقه الواقع ، وهي مقولة حق أرادوا بها باطلاً فحقاً لا اجتهاد مع نص قطعي الثبوت قطعي الدلالة ، أما غير ذلك من النصوص فقطعاً فيها اجتهاد من أهل الاجتهاد ممن تحققت فيهم شروطه .

أما إن كانت الأحاديث صريحة في مخالفة ما ذهبوا إليه فإنهم لا يأخذون بظاهر الأحاديث وإنما يقولون لك لا حديث بغير فقه ويتخيرون من أقوال الصحابة أو العلماء ما يؤيد رأيهم ناسين أو متناسين ملابسات الفتوى ، والعصر الذي قيلت فيه، وطبيعة الناس الذين أفتى لهم العلماء بهذه الفتوى كما أنهم لا يذكرون أقوال من خالف رأيهم من سلف أو خلف ... دليل ذلك اقرأ أو اسمع كلامهم في الغناء ، اللحية ، النقاب ، معاملة غير المسلمين ، وتنظيم الأسرة ، الأحكام المتعلقة بالمرأة، التصوير ، إسبال الإزار ، القيمة النقدية لزكاة الفطر ، ...

بل إن بعضهم يلجأ إلى التدليس على الناس فإذا كان الحديث ضعيفاً في مسألة من المسائل بَحَثَ عمن يصححه من علماء الحديث فإن لم يجد فإنه يكتفي بذكر راوي الحديث دون بيان لدرجة الحديث ومدى صحته ، والناس ينطلي عليها هذا التدليس فلا دراية لهم بعلم الحديث ولا يعرفون إلا إن الشيخ مادام قد قال : قال رسول الله ﷺ فقد صدق وما عليهم إلا السمع والطاعة ووجوب العمل . وإذا كان العلماء قد أجازوا رواية الأحاديث الضعيفة إنما أجازوا روايتها في فضائل الأعمال لا في الأحكام وأشهر مثال على ذلك الأحاديث المحرمة للغناء فإن العلماء مثل : ابن حزم وابن العربي وأبو حامد الغزالي وغيرهم كثير يجمعون على عدم صحة هذه الأحاديث بعكس الأحاديث الدالة على إباحته فهي كثيرة وصحيحة ومتفق عليها إلا أن هؤلاء المدلسين غلاظ القلوب لا فتئون يذكرون الضعيف من الأحاديث ولا يذكرون الصحيح

منها . أليس ذلك تدليساً وخروجاً على الروح العلمية ؟ والعجيب أن هذا الموضوع بالذات هو أكثر المواضيع التي يتحدثون فيها وويفردونها بمؤلفات خاصة !! لماذا هذا الإصرار العجيب على هذا الموضوع بالذات دون غيره كأنه من الأمور العقدية التي لا يصح إيمان إلا بها !! وكلها تصدر من بلد بعينه وتوزع بالمجان على سائر الدول التي تختلف في طبيعة الحياة والتفكير والعلم والعادات والتقاليد والحضارة عن هذه البلد وعن علمائها فإذا كان علماء هذه البلاد لا يسمعون الغناء فهذا حقهم فلم يحرمونه على غيرهم في المناسبات السعيدة والأعياد ترويحاً للقلوب – بالشروط التي بيناها في غير هذا الموضع – كما كان يفعل هذا بعض صحابة رسول الله ﷺ جاء في الحديث الصحيح عن عامر بن سعد قال : " دخَلتُ على قَرَظةَ بنِ كعبٍ ، وأبي مَسعودٍ الأنصاريِّ في عُرسٍ ، وإذا جَوارٍ يُغنِّينَ ! فقُلتُ : أنتُما صاحِبا رسولِ اللهِ ، ومن أهلِ بدرٍ ، يفعَلُ هذا عندَكُم . فقالَ : اجلِس إنْ شئتَ ، فاسمَع معَنا ، وإنْ شِئتَ اذهبْ ، قَد رخَّصَ لنا في اللَّهوِ عندَ العُرسِ "

[رواه النسائي والحاكم وصححه الألباني]

والذي دعاهم إلى تحريم الغناء جملة وتفصيلاً تقليدهم لبعض السلف المحرمين للغناء في عصرهم ، وفي ذلك يقول ابن القيم : " لا يجوز الفتوى بالتقليد لأنه ليس بعلم والفتوى بغير علم حرام ولا خلاف بين الناس أن التقليد ليس بعلم وأن المقلد لا يطلق عليه اسم عالم " (1)

الخلط بين المقدس وغير المقدس

وبعض المتنطعين المقلدين يخلطون بين ما هو مقدس – وهو القرآن الكريم وصحيح السنة – وما هو اجتهاد بشرى ، فيخلطون مثلاً بين

---

(1) ابن قيم الجوزية " إعلام الموقعين " ج ١ ص ٥١

القرآن الكريم وتفسير بعض علماء السلف له فكلاهما مقدس لا يجوز الخروج عليه . فإذا قال الله تعالى ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [لقمان : ٦]

فيكون مراد الله تعالى بلهو الحديث هو " الغناء " كما قال بعض السلف ومن قال بغير ذلك فقد خالف كتاب الله ! وبهذا أصبح بعض كلام السلف هنا مقدساً كالقرآن بالطبع إذا وافق هوى السلفي النصي الحرفي إما إذا خالف هواه في موضع آخر كتفسير ابن عباس وغيره من صحابة رسول الله ﷺ للمستثنى في قوله تعالى ﴿وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ [النور : ٣١] بالوجه والكفين لم يلتفتوا إليه بل يجعلون رأى ابن مسعود هو الرأي المقدس في هذه القضية وهكذا أصبح المقدس من آراء السلف ما يقدسونه هم حسب هواهم .

وبعضهم يخلط بين الإسلام وبعض أقوال السلف فيجعلونهما سواء بسواء وهم بهذا يكونون قد جاروا على الاثنين معاً جاروا على القرآن الكريم والسنة المطهرة كما جاروا على السلف الصالح ؛ فالقرآن كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهو صالح لكل زمان ومكان يفهم منه علماء كل عصر بما يفتح الله عليهم به متسلحين بعلوم الدين وعلوم اللغة وعلوم العصر ، أما السلف الصالح وغيرهم من علمائنا الأفذاذ ما ادعى واحد منهم عصمة لرأيه ولا ادعى أن رأيه صالح لكل زمان ومكان ، وأن رأيه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه إنما كان منهجهم ما عبر عنه الإمام الشافعي بقوله" رأيي صواب يحتمل الخطأ ورأى غيري خطأ يحتمل الصواب " وقول الإمام مالك " كل يؤخذ منه و يرد إلا صاحب هذا المقام – يقصد النبي ﷺ –

. وقد روى أبو نعيم في "حلية الأولياء" عن مالك أنه قال: شاوَرَنى هارون الرشيد في أن يعلّق الموطأ على الكعبة ، ويحمل الناس على ما فيه، فقلت : لا تفعل ، فإن أصحاب رسول الله ﷺ اختلفوا في الفروع، وتفرقوا في البلدان، وكلٌّ مصيب " .

ولو كان للقرآن تفسير واحد لا يصح غيره لفسره النبي ﷺ إنما النبي ترك هذا الأمر لعلماء المسلمين الذين يجددون للإسلام شبابه " إنَّ اللهَ يبعثُ لهذه الأمةِ على رأسِ كلِّ مائةِ سنةٍ من يُجدِّدُ لها دينَها "

[صحيح أبي داود]

معنى هذا أنه يجب فهم الدين بالمفهوم المعاصر له وعدم الاكتفاء ببعض أقوال السلف دون الأخذ بمنهجهم في فهم الدين .

وإذا كانت أقوال السلف مقدسة فلماذا تعددت التفاسير ولم يكتف بأقدمها ؟ ولماذا فسر ابن كثير القرآن بعد ابن عباس والطبري والقرطبي وغيرهم من أعلام التفاسير ؟ ولماذا يُحْرَم مفسرو عصر من التفسير أو شرح الأحاديث أو الفقه ؟!

لقد " خلط بعض السلفيين بين الوحي والتاريخ في المرجعية، جراء نقص في الوعي بالتاريخ لا يميز بين صورته ومعناه، وتقصير في دراسة حياة السلف دراسة استقصائية تلم بكل جوانبها المضيئة والقاتمة ، ولا تقف عند سرد المناقب فقط. وذلك هو داء التجسيد تجسيد المبادئ في أشخاص، مهما يكونوا عظماء فهم غير معصومين، وفي وسائل مهما تكن ناجحة ، فهي محدودة بحدود الزمان والمكان. والذي يتأمل نصوص الشرع ومصائر الأمم يدرك أن الخلط بين المبادئ والأشخاص، أو المبادئ والوسائل ، من أسوأ الأدواء الفكرية والعملية . لقد أمرنا النبي ﷺ باتباع سنته بإطلاق لأنه معصوم: "عليكم بسنتي"،

ثم أمر باتباع سنة الخلفاء من بعده، لكنه قيدها بالرشد "وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي". وفي ذلك درس ثمين في التمييز بين الشخص والمبدأ حتى ولو كان ذلك الشخص أحد الخلفاء الراشدين " (١)

مخالفة أولياء الأمور في الأمور العامة

ومما يؤخذ على بعض المتنطعين مخالفتهم لأولياء الأمر في بلادهم وعدم الالتزام بقوانين الدولة ولا بفتاوى مفتيها . مع أنه " يجب طاعة الإمام في الأمور العامة وإن أساء ما لم يخرج من الإسلام : ومنهج أهل السنة والجماعة الصلاة خلف أئمة الجور والجهاد معهم ، وإن كانوا فجاراً، والصوم بصومهم والحج بحجهم، وإعطاء الزكاة لهم ففي الصلاة صلى المسلمون خلف الذين حاصروا الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه، وصلى السلف خلف الحجاج والوليد، والمختار بن أبى عبيد ، وأمر النبي ﷺ بالصلاة خلف الولاة وإن كانوا يؤخرون الصلاة عن وقتها وفي الزكاة قال النبي ﷺ : " أدوا إليهم حقهم، وسلوا الله حقكم " (متفق عليه) " (٢)

أما أولئك فإنهم لا يعترفون بقوانين الدولة ولا تهمهم مصلحتها فإن أعطت الدولة الأمان للسائحين للسياحة في بلادهم قتلوهم بدعوى أنهم ناشرون للرذيلة والفساد ، وإن جعلت الدولة عصمة أرواح وأموال المواطنين غير المسلمين كعصمة أرواح وأموال المسلمين استباحوا هم دماءهم وأموالهم ، وإن عاهدت الدولة إسرائيل لتسترد أرضها – وقد استردتها بالفعل – اغتالوا الرئيس الذي وقع هذه المعاهدة وانتصر على إسرائيل حرباً وسلماً ...

---

(١) محمد بن المختار الشنقيطى " مخاض الفكر السلفي " .
(٢) عبد الرحمن بن عبد الخالق " القواعد الذهبية في أدب الخلاف " ص ٤

إن هؤلاء الجهلاء بالدين والدنيا قد نصبوا أنفسهم مفتين في الدين وجنرالات في الحرب وسياسيين في المفاوضات ، وخبراء في الاقتصاد، ومربين في مجال التربية .. !! والمدهش أن كثيراً منهم لم يكمل تعليمة أو اقتصر علمه على دراسة بعض المتون والحواشي على كتب مات أصحابها من ألف عام أو يزيد .

جعل أمور الدين في مرتبة واحدة

كثير من النصيين الحرفيين يجعلون أمور الدين في مرتبة واحدة فلبس النقاب كفرضية الصلاة ، وحلق اللحية كشرب الخمر ، والرسام والمصور كعابد الأوثان ، وسماع الأغاني والموسيقى كالزنا والفجور إن تركيزهم على مثل هذه الأمور وكثرة الحديث عنها والاستشهاد عليها من أقوال بعض السلف يجعل حلق اللحية وسماع الأغاني وسفور الوجه كترك الصلاة وشرب الخمر والزنا مع أن أمور الدين ليست على درجة واحدة " بل متفاوتة بيقين في منزلتها من الدين كما أن في داخل كل منها ما يعد من الأصول وما يعد من الفروع ما هو من الأركان ، وما هو من المكملات ما هو من الفرائض ، وما هو من النوافل ما هو قطعي وما هو ظني ما هو متفق عليه وما هو مختلف فيه ما هو في مرتبة الضروريات وما هو في مرتبة الحاجيات وما هو في مرتبة التحسينات على حد تقسيم الأصوليين وهذا أمر جد خطير حتى يأخذ كل عمل مرتبته وتأخذ كل مرتبة حكمها ولا نذيب الفواصل بين الأعمال بعضها وبعض كما يفعل بعض الناس الذين يعاملون الفروع معاملة الأصول ، والسنن معاملة الفرائض والمكروهات كالمحرمات والأمور المختلف فيها كالأمور المتفق عليها والظنيات كالقطعيات ولهذا تضطرب أحكامهم ويختلط عليهم الأمر ويبعدون عن سواء السبيل " (١)

---

(١) د. يوسف القرضاوي " نحو وحدة فكرية " ص ١٠٩

نحن لا ننكر عليهم أن يرسلوا لحاهم ، وألا يسمعوا الموسيقا والغناء مهما كان موضوعها وطريقة أدائها، إنما ننكر عليهم جعل هذه الأمور من فرائض الإسلام وأن المحجبة غير المنتقبة سافرة ، وأن حليق اللحية فاسق ، وأن من يسمع الأغاني والموسيقا – وإن كانت النشيد الوطني لبلاده – خليع ماجن مع أن هذه الأمور من المباحات وأن كثيراً من الفقهاء قديماً وحديثاً قد أجازها " ومن حقائق الحياة أن الناس يتفاوتون في هذه القضية فمنهم المتساهل الميسر ومنهم المتشدد المعسر وقد كان في الصحابة المترخص كابن عباس والمتشدد كابن عمر رضى الله عنهما " (١)

لكن النصيين الحرفيين أو الظاهريين البدو يأبون إلا أن يفتوا الناس بآرائهم المتشددة ويلزموهم بها وكان عليهم إما أن يبينوا للناس بشيء من اليسر أشهر الآراء ويَدَعُوا الناس تختار ما تطمئن إليه قلوبهم ، أو يكتفون بذكر الرأي الأيسر إقتداء بالنبي ﷺ الذي ما خير بين أمرين إلا واختار أيسرهما ما لم يكن أثماً .

فرض الرأي بالقوة

وكثيراً ما يلجأ هؤلاء المتنطعين إلى استخدام الشدة بل العنف أحياناً في فرض آرائهم ورمى مخالفيهم بالابتداع ومخالفة السنة وتطاولهم على علماء أفنوا عمرهم في الدعوة إلى دين الله على بصيرة – جاهلين أو متجاهلين – نهج القرآن في خطاب الكفار – فما بالك بخطاب المسلمين – فيقول تعالى ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالتي هي أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ

(١) د . يوسف القرضاوى " الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف " ص ٣٧

وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل : ١٢٥] وقوله تعالى لموسى وهارون: ﴿فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ [طه : ٤٤] فإذا كان موسى أُمِر بأن يقول لفرعون قولاً ليناً، فمن دونه أحرى بأن يقتدى بذلك في خطابه، وأمره بالمعروف في كلامه. وقد قال تعالى ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً ﴾ [البقرة : ٨٣] (١)

ويعلمنا الله تعالى أن نخاطب المخالفين لنا في الدين بالتي هي أحسن فضلاً عن أخواننا في الدين ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [العنكبوت : ٤٦] .

إن سمة الداعي إلى الله على بصيرة أن يكون رقيق القلب يعفو عمن أساء ويدعو بالخير لمن أعرض وهكذا كان النبي ﷺ ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

﴿لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : ١٢٨] .

أما المتنطعون فإما إن تسلم لهم برأيهم وتلتزم به قولاً وعملاً، وإلا رموك بالابتداع ، ومخالفة السنة ، والخروج على الدين ، وربما يغالى بعضهم فيحمل عليك السلاح! كما حملوه على الرئيس السادات، والشيخ الذهبي، ورفعت المحجوب، ورجال الشرطة ، والأبرياء من المواطنين – رحمهم الله – وكما رفعوه على نجيب محفوظ ، وجميع وزراء الداخلية في العقدين الأخيرين ...

---

(١) القرطبى في تفسير قوله تعالى " "فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى"

الاشتغال بالمعارك الجانبية عن القضايا الكبرى

ومن دلائل عدم الرسوخ في العلم ومن مظاهر ضعف البصيرة بالدين اشتغال عدد من هؤلاء السلفيين بكثير من المسائل الجزئية والأمور الفرعية ، عن القضايا الكبرى التي تتعلق بكينونة الأمة وهويتها ومصيرها فنرى كثيراً منهم يقيم الدنيا من أجل اللحية أو الأخذ منها أو إسبال الثياب ، أو تحريك الإصبع في التشهد ، أو اقتناء الصور الفوتوغرافية أو نحو ذلك من المسائل التي طال فيها الجدال وكثر فيها القيل والقال . هذا في الوقت الذي تزحف فيه العلمانية اللادينية وتنتشر الماركسية الإلحادية ، وترسخ الصهيونية أقدامها ، وتكيد الصليبية كيدها ، وتعمل الفرق المنشقة عملها في جسم الأمة الكبرى وتتعرض الأقطار الإسلامية العريقة في أسيا وأفريقيا لغارات تنصير جديدة يراد بها محو شخصيتها التاريخية وسلخها من ذاتيتها الإسلامية .. والعجيب أن الذين هاجروا أو سافروا إلى ما وراء البحار في أمريكا وكندا وأوروبا لطلب العلم أو طلب الرزق قد نقلوا هذه المعارك الجانبية إلى هناك .. وكان أولى بهؤلاء أن يصرفوا جهودهم إلى ما يحفظ على المسلمين وناشئتهم أصل عقيدتهم ، ويربطهم بأداء الفرائض ، ويجنبهم اقتراف الكبائر .. (١)

كنت في زيارة لأحد المعارف وعندما أذن لصلاة المغرب ذهبت للصلاة في مسجد قريب من بيته وإذا بمن أمَّنا في الصلاة ،وكان شاباً دون العشرين، يقرأ في الفاتحة ﴿مَلِك يوم الدين﴾ لا ﴿مالك يوم الدين﴾ وتأكدت من ذلك في الركعة الثانية فلما انتهت الصلاة انتحيت به جانباً أسأله عن ذلك ، وأنا أعلم أنها إحدى القراءات الصحيحة ،

(١) د. يوسف القرضاوى " الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف " ص ٧٢

فقال : إنها قراءة نافع وأبو عمرو وغيرهما . فقلت له : ولماذا لم تقرأ بقراءة حفص عن عاصم وهي قراءة مسلمي مصر والسعودية وغالبية بلاد المسلمين ؟ وهل يجوز تعدد القراءات في الصلاة الواحدة ؟ وماذا لو ردك مصلٍ ؟ فقال : لقد حدث كثيراً لكنى لم أعبأ بهم . ، قلت له : وما غرضك من هذه البلبلة وتشتيت الناس ؟ قال : حتى يعلموا أن هناك قراءات أخرى ؟ قلت له : يكون هذا التعليم في دروس العلم لا في الصلاة .. لكنه لم يقتنع فدعوت الله لي وله بالهداية . هذا أنموذج من الشباب المغرم بالتفريق لا التجميع وخوض معارك كلامية لا طائل منها إلا الفرقة .

إن بعض الذين يتصدون للدعوة مغيبون عن العالم من حولهم يفتحون الكتب ويقرءون فيها لا يعلمون ما يناسب الناس وما لا يناسبهم كالببغاء يردد كلاماً لا يدرى معناه ولا جدواه وإليكم بعض نوادر إمام المسجد الذي أصلى فيه إنه شاب يقوم بإلقاء خطبة الجمعة وعقد دروس علم بين المغرب والعشاء كل يوم ، يمسك بكتاب من كتب الدين القديمة ويقرأ ويعلق على ما يقرأ وهو أنموذج لكثير من خطباء المساجد المنتشرين في ربوع مصر والعالم الإسلامي ومن نوادره أنه عقد درساً استغرق من المغرب للعشاء كان موضوعه حكم مس الحصى في الصلاة ، وتلفت حولي فوجدت البسط الفاخرة تغطى أرض المسجد ولا أثر لحصاة ولا حتى لحبة رمل في هذا المسجد ولا في غيره من المساجد ولكن الواعظ المتشدق عرض جميع أراء العلماء في حكم مس الحصى في الصلاة فما ضره لو تحدث عن أمراض المجتمع التي تعوق تقدمه وهي كثيرة .

وفـي محاضـرة أخـرى كـان موضـوعها حكـم صـلاة الحنفـي خلـف الشافعي ، وحكى اختلاف العلماء حول القنوت بإسهاب غريب ونظرت حولي فوجدت معظم المصلين من العامة الذين لا يعرفون من المذاهب الإسلامية إلا أسماء أصحابها شأنهم شأن غالبية المسلمين ، وبدلاً من التركيز على الأصول بطريقة عصرية ميسرة محببة وضرب الأمثلة من حياة الناس راح الواعظ يشتت العقول بإقحامهم في صراعات مذهبية عفي عليها الزمن، ولقد خصص هذا الواعظ خطبة جمعة كاملة عن النمل وحكم قتل النمل واختلاف العلماء حول ذلك وعرض عشرات الآراء حول هذا الموضوع وانتهي إلى تحريم قتل النمل إلا قصاصاً – أي إذا قرصتك – !! وخصص خطبة جمعة أخرى يرد فيها على الإمام أبى حنيفة في إباحته دفع زكاة الفطر نقداً !

وهكذا الوعاظ في واد والعالم في واد آخر لأنهم نقلة ولا يعمل أحدهم على استخدام عقله في دراسة ما حوله من متغيرات وما يتناسب معه من تعاليم .

سمع شيخنا الغزالي أحد هؤلاء فقال له " اسمع يا بني لماذا تحيون الخصومات العلمية القديمة ؟ كانت هذه الخصومات ، ودولة الإسلام ممدودة السلطة ، خفيفة الضرر إنكم اليوم تجددونها ودولة الإسلام ضعيفة ، بل لا دولة له فلم تعيدونها جذعة وتسكبون عليها من النفط ما يزيدها ضراماً وجهوا الأمة إلى كتاب ربها وسنة نبيها واشغلوهم بما اشتغل به سلفنا الأول اشتغل بالجهاد في سبيل الله فاعتز وساد مع ملاحظة أنهم كانوا يحررون غيرهم أما نحن فمكلفون بتحرير أنفسنا "(١)

---

(١) " هموم داعية " محمد الغزالى ص١٦

ومما يؤخذ على بعض الجماعات السلفية المعاصرة تحولها إلى ما يشبه المدرسة الكلامية القديمة التي تطنب في الحديث عن دقائق العقائد دون داع شرعي، وهو ما لا ينسجم مع منهج السلف القائم على البساطة، وتجنب الخوض في تلك المباحث إلا لضرورة. وقد كان جديراً بالسلفيين أن يأخذوا العبرة من المعارك التي مزقت لحمة المجتمع الإسلامي خلال القرون السابقة ، وأهدرت طاقاته الفكرية والعملية في الجدل حول أمور لا جدوى من الخوض فيها " [1]

أذكر أنى في مطلع شبابي كنت متأثرا بالمنهج السلفي الكلامي في شرح العقيدة وكنت أخطب الجمع وألقى المحاضرات في العقيدة وذات مرة وبعد أن انتهاء حديث لي كان عن ذات الله تعالى ، عرضت فيه الموضوع كما يعرضه النصيون الحرفيون من أن لله عين بدليل قوله تعالى ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه : ٣٩ لكنها ليست كعيون مخلوقاته تعالى لأن الله تعالى﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] وكذلك له يد بدليل قوله تعالى ﴿يد الله فوق أيديهم﴾ لكنها ليست كأيدي مخلوقاته ... بعد المحاضرة اقترب منى رجل بسيط طيب وقال لي سامحك الله لقد أفسدت على إيماني فقد كنت أنزه الله بما يليق بجلاله وكنت عندما أمر بآيات الذات استشعر عظمة الله لكن بعد حديثك هذا لم أعد كذلك . فكرت في كلام الرجل البسيط فوجدته محقاً فيه وأن التفكر في مخلوقات الله أولى من بحث ذاته ولما تدبرت الأمر ملياً وجدت أن منهج الرجل البسيط الفطري هو منهج الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين فلم يؤثر عن أحدهم الخوض في الحديث عن ذات الله كما خاض فيه النصيون الحرفيون فعزفت عن

---

(١) " مخاض الفكر السلفي " محمد بن المختار الشنقيطى .

تكرار هذا ثانية وأصبحت أكتفي عند حديثي عن الله جلَّ وعلا بالحديث عن عظمة الله في خلقه وحكمته في شرعه دون التعرض لقضية الذات والصفات .

ويقال مثل هذا في معارك بعض السلفيين الكلامية الوهمية في الرد على بعد الفرق الدينية التي لم يعد يدين بها أحد من المعاصرين كالمعتزلة والخوارج والمرجئة .. فيقومون بعرض آرائهم والرد عليها ، وهي حرب بلا ميدان مثل حروب دون كيشوت الوهمية فهم يبعثون آراء ماتت ليحاربوها ويردوا عليها !! ليتهم علموا الناس القراءة والكتابة لكان أجدى للأمة وانفع من تعليمهم الخلاف في الدين وتعريفهم بآراء أصبحت في ذمة التاريخ .وإثارة موضوعات تجاوزتها الأمة من قرون .

المبالغة في التمسك بالمظهر ، والتفريط في الجوهر

كثير من هؤلاء المتنطعين يتمسكون أشد التمسك في ارتداء الجلابيب القصيرة إلى قرب منتصف الساق ، ولبس الغترة الخليجية ، وإرسال اللحية ، وتحريم مشاهدة التلفاز ، وكل أنواع الفنون ، ... وفي نفس الوقت تجدهم لا يخلصون في أداء الأعمال الموكولة إليهم والتي يتقاضون عليها أجراً ، ولا يخالقون الناس بخلق حسن حتى وإن كانوا والديهم أو أبناءهم ، أو أزواجهم ، أو الصالحين من المسلمين، لدرجة جعلت كثير من الناس لا يطمئنون إليهم ولا يستعملون من على هيئتهم بعدما أصبحوا عنواناً على الإهمال ورمزاً للعنف ، ودليلاً على التخلف والرجعية ، والجدل العقيم ، وهم بهذا يسيئون إلى الإسلام والمسلمين جميعاً ، ومن المؤسف حقاً أن هؤلاء الذين يثيرون الجدل في هذه المسائل الجزئية وينفخون في جمرها باستمرار أناساً يعرف عنهم الكثيرون ممن حولهم ، التفريط في واجبات أساسية مثل : بر الوالدين ،

أو تحرى الحلال ، أو إتقان العمل أو رعاية حق الزوجة أو حق الأولاد أو حق الجوار ولكنهم يغضوا الطرف عن هذا كله وسبحوا بل غرقوا في دوامة الجدل الذي أصبح لهم هواية ولذة ، وانتهي بهم اللدد في الخصومة والمماراة المذمومة وهذا النوع من الجدل هو الذي أشار إليه الحديث " مَا ضَلَّ قَوْم بَعْد هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إلا أُوتُوا الْجَدَل ، ثُمَّ تَلا ﷺ تِلْكَ الآيَة ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَك إلا جَدَلا بَلْ هُمْ قَوْم خَصِمُونَ﴾

[صحيح الترمذي وأحمد]

يقول د. يوسف القرضاوي : " روى لي الإخوة في أمريكا عن أحد الذين ارتفعت أصواتهم بالإنكار على أكل اللحوم المذبوحة من طعام أهل الكتاب مما أفتى بحله عدد من العلماء قديماً وحديثاً وكان هذا من أعلاهم صوتاً وأكثرهم تشدداً وهو في نفس الوقت ، كما روى لي الثقات، لا يبالى أن تكون الخمر على مائدته فهذه نقرة وتلك نقرة ، يعنى أنه يتشدد ويتوقف في المشتبه فيه والمختلف عليه ، على حين يقتحم حمى المحرمات اليقينية الصريحة بلا توقف ولا مبالاة !! .

ومثل هذا الموقف المتناقض ، الاجتراء على الكبائر والوسوسة في التوافه ، هو ما أثار الصحابي الجيل عبد الله بن عمر رضى الله عنهما حين سأله مَن سأله من أهل العراق عن دم البعوض ونحوه بعد أن قتل الحسن بن على فقال : ها ! انظروا إلى هذا يسأل عن دم البعوض وقد قتلوا ابن رسول الله ." (١)

إهمال علوم العصر ، وتعمير الأرض

ومن غريب فكرهم وتخلف منطقهم إهمالهم لعلوم العصر والانكباب فقط على دراسة بعض كتب السلف مما كان له أكبر الأثر في نفوس

(١) د. يوسف القرضاوى " الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف " ص ٧٢

أتباعهم من طلبة المدارس والجامعات فأهملوا دراستهم ، أو كادوا ، أو على أقل تقدير لم يعطوا دراسة العلوم الحديثة الجهد الكافي لتعلمها فضلاً عن المشاركة في تطويرها مما يهدد بمزيد من التخلف والرجعية والتبعية للغرب في العلوم الحديثة بدلاً من منافسته والتفوق عليهم ومحاربتهم بسلاحهم .

إن عقلية السلفي النصي التقليد لا الابتكار والنظر للقديم نظرة تقديس ، والنظر للحديث نظرة ريبة وتوجس ، أو ازدراء واستهجان لأنه مخالف لما حفظة عن القدماء .

مع أن القرآن الكريم حث على العلم الشامل لجميع دروب المعرفة وليس العلم الديني فحسب فقال تعالى ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ للموقنين وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات : ٢٠ – ٢١]

وهذه الآية دعوة لدراسة العلوم الكونية جميعها والاستفادة منها ، كما أنها دعوة لدراسة العلوم الخاصة بالإنسان وما يتعلق به من فروع الطب المختلفة ، والهندسة الوراثية ، والصيدلة ، والعلوم الإنسانية وغيرها .

ولقد أمر الله تعالى أن نسأل العلماء فيما يستغلق علينا فهمه من أمور الدين أو الدنيا ﴿فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء : ٧]

فالعلماء ، وليس حفظة الذين يرددون ما لا يفقهون ، المتخصصون في علوم الدين والدنيا هم أهل الذكر .

وترتب على إهمالنا لعلوم الدنيا وفهمنا غير المتجدد لعلوم الدين أن ورث الكفار الأرض واكتفينا نحن بالدعاء عليهم يقول الله تعالى ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء : ١٠٥]

ولقد مضت سنة الله تعالى في خلقه أن الصالحين لعمارة الأرض هم من يرثونها ويسخرونها لمصلحتهم .

وهذا هو الواقع أن غير المسلمين هم الذين يرثون الأرض الآن ، وأن المسلمين بسبب جهلهم وتخلفهم وعدم أخذهم بعلوم العصر أقصوا عن مقدمة الركب وأصبحوا في ذيل القافلة بل واستولى أعداؤهم على أراضيهم .

إن النصيين الحرفيين لا يدركون هذه الحقيقة القرآنية لا يدركون أن من يعمل للدنيا ويسعى لامتلاك زمام الأمور فيها فإن الله تعالى يؤته جزاءه في الدنيا : تقدم ، وقوة ، وهيمنة ، وعلو ، وليس له في الآخرة من نصيب ومن أراد الآخرة فعليه أن يعبد الله ويعمر الدنيا ويصلح فيها فيؤتيه الله تعالى الدنيا والآخرة ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى : ٢٠] .

والله تعالى لا يبخس الناس ، وإن كانوا كفاراً ، أعمالهم فمن كان يعمل للتمكين في الدنيا فأخذ في أسباب العلم والتقدم يمكّن الله له في الدنيا أما من كان يريد عبادة لله حقاً فليعمل للدارين فيأخذ في أسباب العلم المادي مع القيام بحق الله عليه .

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء : ١٨ – ٢٠] .

أما النصيون الحرفيون فلا يقيمون للدنيا وزناً ولا يسعون لتعميرها ، ولا يعبدون الله تعالى بالسعي في مناكب الأرض ظانين أن ذالك ليس

من موجبات الشرع ! بل مما حرم الشرع الاشتغال به ! فما خلق الله تعالى الإنسان إلا لعبادته والعبادة فقط أركان الإسلام مع الذكر والدعاء وقراءة القرآن !! فإصلاح الدنيا يتناقض مع عبادة الله .

إن أعجب ما يشين هذا التفكير الديني الهابط هو أنه لا يدرى قليلاً ولا كثيراً عن دساتير الحكم وأساليب الشورى وتداول المال وتظالم الطبقات ومشكلات الشباب ومتاعب الأسرة وتربية الأخلاق ..ثم هو لا يدرى قليلاً ولا كثيراً عن تطويع الحياة المدنية وأطوار العمران لخدمة المثل الرفيعة والأهداف الكبرى التي جاء بها الإسلام إن العقول الكليلة لا تعرف إلا القضايا التافهة لها تهيج وبها تنفعل وعليها تصالح وتخاصم! " (١)

وتناسى هؤلاء قول الله تعالى : ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود : ٦١]

إن كل عمل يؤدي إلى عمارة الكون واستنباط أسرار الله في الوجود يعتبر عبادة لله؛ لأنك تخرج من كنوز الله التي أودعها في الأرض ما يلفت الناس إلى الحقيقة الكونية التي جاء بها الإيمان .

وإياك أن تظن أن العبادة هي فقط العبادة التصنيفية التي في الفقه " قسم العبادات " و" قسم المعاملات " .. لا ، فكله عبادة ، لكن الحركات الحياتية الأخرى لا تظهر فيها العبادة مباشرة؛ لأنك تعمل لنفعك ، أما في الصلاة فأنت تقتطع من وقتك ، فسميناها العبادة الصحيحة؛ لأن العمليات الأخرى يعمل مثلها من لم يؤمن بإله ، فهو أيضا يخرج للحياة ويزرع ويصنع .

---

(١) محمد الغزالى " هموم داعية " ص ٣٠ .

ولماذا سموها العبادات؟ لأن مثلها لا يأتي من غير متدين . إنما الأعمال الأخرى من عمارة الكون والمصلحة الدنيوية فغير المتدين يفعلها ولكن كل أمر لله نطيعه فيه اسمه عبادة . هذا مفهوم العبادة الذي يجب أن يتأكد لنا أن نخلص العمل بالعقول التي خلقها الله لنا بالطاقات المخلوقة لنا ، في المادة المخلوقة وهي الأرض وعناصرها لنرقي بالوجود إلى مستوى يسعدنا ويرضي الله عنه . (١)

وفي الحديث الصحيح " أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ " توجيه نبوي حكيم إلى أن شئون الدنيا موكولة للعلم والعلماء الذين يعملون عقولهم في تسخير قوانين الطبيعة من أجل صالح البشر .

الدنيا عند المتنطعين لا وزن لها ولا قيمة وطلابها عبيد لها ، والسعي فيها انشغال بها ، ولم يفهموا آيات القرآن التي تكلمت عن الدنيا والأحاديث الشريفة إلا على أنها تبغضهم في الدنيا بحلالها وحرامها ، وتأمرهم بطرحها بالكلية والتفرغ للعبادة ولا يكون العمل إلا لكسب لقمة العيش فقط وليس العمل الذي يجعل الدنيا في قبضة المسلمين ليس بقوة السلاح فقط إنما بقوة العلم أيضا وفي هذا المقام يجدر بنا أن نوضح مفهوم الدنيا المبغوضة من الله ورسوله والتي أمرنا ديننا الحنيف بألا تغرنا.

إن الناظر في الآيات التي تتحدث عن الدنيا يتراءى له الأمر جليّاً أن الله تعالى يقصد بها دنيا الكفار والعصاة تلك الدنيا التي لا يعرف عبيدها لهم رباً سواها ، تلك الدنيا التي تنسيهم أن هناك بعثاً ونشوراً وحساباً لذا يجعلها الله تعالى في كثير من الآيات مقابلة للآخرة فإن كان

(١) تفسير الشيخ الشعراوي ص ١٥٠٦ .

العمل للآخرة يعنى الإيمان بالله الواحد الأحد الذي سخر الكون لعباده وأمرهم بإخلاص العبادة له وتعمير الكون فإن الدنيا تعنى الانشغال بالمسخَّر عن المسخِّر ، وآفة هؤلاء ليست العمل في الدنيا والاستمتاع بها فالله تعالى أمرنا بالعمل فيها واستعمارها على لسان رسله ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود : ٦١]

إنما آفة طلاب الدنيا هي نسيان الله المنعم والكفر بالآخرة .

﴿الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [الأعراف : ٥١]

وعلى العقل الناضج أن يعامل الدنيا دون نسيان مهمتها ، وآفة الناس أنهم جعلوا الوسائل غايات ، وغاية وجود الناس على الأرض أن يعمروها بالعمل الصالح وعبادة الحق ، فمن انجرف عن ذلك فله عقابه يوم الغاية الكبرى ، وهو يوم الحساب .

تطبيق عادات العرب الجاهلية على المرأة المسلمة

إن الظاهريين البدو ومن شايعهم من النصيين الحرفيين يريدون أن يلبسوا الإسلام ثوب العادات العربية بل والجاهلية أيضاً فإذا كان العرب من عادتهم لبس الجلباب فإن الجلباب يصبح عند هؤلاء السلفيين ديناً ، وإذا كانت المرأة في الجاهلية مجلبة للعار والأفضل أن تدفن حية وإن منُّوا عليها بالحياة فلا يجب أن يراها أحد ولا ترى أحداً ولا حق لها في تعليم أو عمل أو ميراث بل هي مما يورث كسائر المتاع كما أنها يجب أن تعيش حبيسة البيت فلا تخرج من بيتها إلا إلى بيت زوجها أو إلى

القبر وصوتها عورة وكل جسدها عورة حتى وجهها وكفيها .. وهذه من العادات الجاهلية التي جاء الإسلام فأبطلها ، بل وجعل النبي العودة إلى هذه العادات البدوية من الكبائر فقال " اجتنِبوا الكبائرَ السبعَ : الشركُ باللهِ ، و قتلُ النَّفسِ ، و الفرارُ من الزَّحفِ ، و أكلُ مالِ اليتيمِ ، و أكلُ الرِّبا ، و قذفُ المحصنَةِ ، والتَّعرُّبُ بعد الهجرةِ " [رواه الطبراني وصححه الألباني] " التَّعرُّبُ بعد الهجرةِ " هو أن يعود إلى البَادية ويُقِيمَ مع الأَعرَاب بعدَ أن كانَ مُهَاجراً. وكان من رَجَع بعدَ الهِجْرة إلى موضِعه من غير عُذْر يَعدُّونه كالمُرْتَدّ " (١)

ونعى الله تعالى على الجاهليين وأدهم للبنات فقال :

﴿وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ بِأَى ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير : ٩]

كما حكم الله تعالى على جاهليين بالظلم وبسوء الحكم إذ يفضلون الذكر على الأنثى يقول تعالى : ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ في التُّرَابِ أَلاَ سَاء مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل : ٥٩]

وجاء الإسلام ليسوى بين الرجل والمرأة " في معظم شئون الحياة ولم يفرق بينهما إلا حيث تدعو إلى هذه التفرقة طبيعة الجنسين ومراعاة المصلحة العامة والحفاظ على تماسك الأسرة واستقامة أحوالها ، وبل ومنفعة المرأة ذاتها .وكثير من حقوق المرأة التي أعطتها شريعة الإسلام لها حرمها منها هؤلاء النصيون الحرفيون واستبدلوا حكم الجاهلية بحكم الله تعالى . ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة : ٥٠]

---

(١) ابن الأثير " النهاية في غريب الحديث والأثر ".باب العين مع الراء .

أما الظاهريون البدو فقد حرموا المرأة من حق التعليم من أنه فريضة على كل مسلم ذكراً كان أو أنثى " طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ " [رواه ابن ماجة وصححه الألباني] ، وحرموها من حق العمل خارج بيتها إذا اقتضت الظروف ذلك، كما حرموها ممارسة حقوقها المدنية ، كما جعلوها عورة يجب أن تظل حبيسة البيت ، وإن خرجت فلا يرى منها شيء ولا يسمع منها صوت وأن تكون في حراسة أحد محارمها ولا تستأذن في أي من الأمور وإن كان في أمر زواجها..

ولقد فطن العلماء من زمن بعيد إلى أن البدوي الجلف قاسى القلب ، بحكم البيئة القاسية التي تربى فيها ، لا يؤم الحضري الذي هذبته الحضارة وارتقى به العلم " المالكية قالوا: تكره إمامة البدوي ، وهو ساكن البادية ، للحضري ، ساكن المدن، ولو كان البدوي أكثر قراءة من الحضري، أو أشد إتقاناً للقراءة منه، لما فيه من الجفاء والغلظة، والإمام شافع فينبغي أن يكون ذا لين ورحمة " (١)

بل إن رسول الله ﷺ لم يجز شهادة البدوي فعن أبى هُرَيْرَةَ أَنّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: " لا تَجُوزُ شَهَادَةُ بَدَوِى عَلَى صَاحِبِ قَرْيَةٍ " إنما كره شهادة البدوي لما فيه من الجفاء في الدين والجهالة بأحكام الشرع ولأنهم في الغالب لا يضبطون الشهادة على وجهها " (٢)

وقد نزل في حقهم: ﴿الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ [التوبة : ٩٧]

ويقول تعالى : ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة : ٥٠]

---

(١) عبد الرحمن الجزيرى "الفقه على المذاهب الأربعة " مبحث إمامة الصلاة .
(٢) " عون المعبود شرح سنن أبى داود " للآبادى باب شهادة البدوي على أهل الأمصار .

ينكر تعالى على من خرج عن حكم اللّه المحكم المشتمل على كل خير الناهي عن كل شر، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة اللّه، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات، مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم " (١)

وروى الإمام البخاري عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ " أبغض الناس إلى الله ثلاثة ملحد في الحرم ومبتغ في الإسلام سنة الجاهلية ومطلب دم امرئ بغير حق ليهريق دمه " ويشرح البخاري الحديث فيقول : " أبغض الناس" أكثرهم عقاباً منه وبعداً عن رحمته. " ملحد " ظالم مائل عن الحق والعدل بارتكاب المعصية. "مبتغ " طالب ومتبع . " سنة الجاهلية " طريقتها وعاداتها وأخلاق أهلها. "مطَّلب"متكلف للطلب وساع وراءه في كل مكان. " بغير حق " يستبيح دمه. "ليهريق دمه" ليسيله، وهو كناية عن القتل.

فكيف يتصدى هؤلاء البدو الظاهريون الذين لا يعلمون حدود ما أنزل الله على رسوله ﷺ لإفتاء الناس في مصر والعراق والشام والمغرب العربي ... وأوربا وأمريكا وسائر البلاد المتقدمة ، إنهم معزولون عن العالم الخارجي لا يدرون ما وراء بلادهم ولا يعلمون عن أحوال الناس وظروف حياتهم ما يجعلهم يفتونهم والعجيب أنهم ينهالون تجريحاً وطعناً في كل عالم فقيه يحاول أن ييسر على الناس دينهم ! لقد كان من جراء ذلك أن صدوا عن دين الله وبغَّضوا الناس في الإسلام ، وأقنطوا الناس من رحمة الله تعالى ، وألزموهم بعادات بدوية ليست من الإسلام وجعلوها لهم دينا ، والمدهش أن هؤلاء البدو الأجلاف

---

(١) " تفسير ابن كثير " للآية الكريمة .

المتنطعين متكبرون مكابرون يصرون على قصر فهم الدين عليهم وحدهم ولا يسمحون بالاختلاف معهم وكأن الدين ميراث شخصي ورثوه كما ورثوا لبس الجلابيب والغترة .

نشر الخلاف بين المسلمين والتشنيع بالمخالفين

كثير من المتنطعين لا عمل له ولا غاية إلا تتبع وتصيد أخطاء وزلات غيره من علماء الإسلام ودعاته والتشنيع عليهم بها مع أنه لا تشنيع ولا تفسيق ولا تبديع للمخالف في الأمور الاجتهادية :

ولا يجوز اتهام المخالف ولا التشنيع عليه ، ولا ذكره من أجل مخالفته ، ولا تبديعه ، ولا تفسيقه ومن صنع شيئاً من ذلك فهو المبتدع المخالف لإجماع الصحابة.

قال ابن تيمية : وَقَدْ اتَّفَقَ الصَّحَابَةُ فِي مَسَائِلَ تَنَازَعُوا فِيهَا ؛ عَلَى إقْرَارِ كُلِّ فَرِيقٍ لِلْفَرِيقِ الآخَرِ عَلَى الْعَمَلِ بِاجْتِهَادِهِمْ كَمَسَائِلَ فِي الْعِبَادَاتِ والمناكح وَالْمَوَارِيثِ وَالْعَطَاءِ وَالسِّيَاسَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَحَكَمَ عُمَرُ أَوَّلَ عَامٍ فِي الْفَرِيضَةِ الحمارية بِعَدَمِ التَّشْرِيكِ وَفِي الْعَامِ الثَّانِي بِالتَّشْرِيكِ فِي وَاقِعَةٍ مِثْلَ الأُولَى وَلَمَّا سُئِلَ عَنْ ذَلِكَ قَالَ : تِلْكَ عَلَى مَا قَضَيْنَا وَهَذِهِ عَلَى مَا نَقْضِي . وَهُمْ الأَئِمَّةُ الَّذِينَ ثَبَتَ بِالنُّصُوصِ أَنَّهُمْ لا يَجْتَمِعُونَ عَلَى بَاطِلٍ وَلا ضَلالَةٍ وَدَلَّ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ عَلَى وُجُوبِ مُتَابَعَتِهِمْ . وَتَنَازَعُوا فِي مَسَائِلَ عِلْمِيَّةٍ اعْتِقَادِيَّةٍ كَسَمَاعِ الْمَيِّتِ صَوْتَ الْحَيِّ وَتَعْذِيبِ الْمَيِّتِ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ وَرُؤْيَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ رَبَّهُ قَبْلَ الْمَوْتِ مَعَ بَقَاءِ الْجَمَاعَةِ وَالأُلْفَةِ . وَهَذِهِ الْمَسَائِلُ مِنْهَا مَا أَحَدُ الْقَوْلَيْنِ خَطَأٌ قَطْعًا وَمِنْهَا مَا الْمُصِيبُ فِي نَفْسِ الأَمْرِ وَاحِدٌ عِنْدَ الْجُمْهُورِ أَتْبَاعِ السَّلَفِ وَالآخَرُ مُؤَدٍّ لِمَا وَجَبَ عَلَيْهِ بِحَسَبِ قُوَّةِ إدْرَاكِهِ وَهَلْ يُقَالُ لَهُ : مُصِيبٌ أَوْ

مُخْطِئٌ ؟ فِيهِ نِزَاعٌ . وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَجْعَلُ الْجَمِيعَ مُصِيبِينَ وَلا حُكْمَ فِي نَفْسِ الأَمْرِ . وَمَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ أَنَّهُ لا إثْمَ عَلَى مَنْ اجْتَهَدَ وَإِنْ أَخْطَأَ ." (١)

ومن عوارهم أنهم لا يحفظون لعالم حرمة ولا يلتمسون لفقيه عذر بل هم سيوف بتارة على كل من خالفهم من العلماء والمفكرين المجتهدين يتهمونهم بأنهم علماء السلطان ، أو علماء الحيض والنفاس ، فشيخ الأزهر في نظرهم أرضى الحكومة في سخط الله ، ومفتى الديار المصرية يحل ما حرم الله ويحرم ما أحل الله ، وبقية علماء الأمة ، ممن خالف رأيهم ، إما جهلة متطفلون على موائد العلم أو منافقون يفصِّلون الفتوى حسب طلب سادتهم !! ولا يكاد يسلم واحد من هؤلاء العلماء الأجلاء والعجيب أن هذه الأحكام الجريئة على الحق وأهله تصدر من أناس أقل ما يصفون به الجهل وسوء الأدب ، وعلى الجملة "إذا عرض داعية الإسلام عرضا يلائم ذوق العصر متكلما بلسان زمانه ليبين لهم فهو متهم بالهزيمة النفسية أمام الغرب وحضارة الغرب " (٢)

ولقد سمعت شاباً متحمساً ذات مرة يطعن في شيخ الأزهر (الشيخ سيد طنطاوي) فقلت له لماذا تسب عالماً من علماء الدين أفنى عمره في العلم والتعليم وخدمة الدين؟ فقال ، غفر الله له ، لأنه يبيح الربا !! قلت له أتعرف ما معنى أن مسلماً يبيح الربا ؟ إن ذلك يعنى أنه كافر مرتد خارج عن الملة مستحق للقتل وإذا مات لا يغسَّل ولا يكفَّن ولا يصلى عليه ولا يدفن في مدافن المسلمين ، هل شيخ الأزهر الشريف العالم الجليل حافظ كتاب الله بل له تفسير بديع للقرآن الكريم كافر مرتد ؟!

---

(١) ابن تيمية " مجموع الفتاوى " ج ١٩ ص ١٢٢ ، ١٢٣ .

(٢) يوسف القرضاوى " الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف " ص ٥٠

هل قرأت ما كتبه في المعاملات المصرفية ؟ فقال لا .. قلت هل تعلم أن لجنة البحوث الفقهية ، بمجمع البحوث الإسلامية ، عُقدت لبحث الحكم الشرعي لشهادات الاستثمار وأرباحها سنة ١٩٧٦م وكانت تتكون من أربعة عشر فقيهاً يمثلون المذاهب الأربعة ، وكان قرار اللجنة أن تسعة منهم ذهبوا إلى أن هذه الشهادات وأرباحها جائزة شرعاً ويكفي أن نقول أن من بين هؤلاء التسعة المجيزين لأرباح شهادات الاستثمار أصحاب الفضيلة : عبد الله المشد ، وزكريا البرى ، وعبد الجيل عيسى ، يس سويلم ...، ويكفي أن نقول أن من غير هؤلاء العلماء التسعة خلقاً كثيرين أباحوا هذه المعاملات على رأسهم مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف والشيخ محمد عبده ، وفضيلة الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت في كتابه الفتاوى ، والشيخ عبد الوهاب خلاف ، والشيخ عبد المنعم النمر ، الشيخ على الخفيف والمفكر الإسلامي فهمي هويدي و ... وما أفتى به د.محمد سيد طنطاوي كان بُناءً على قرار لجنة البحوث الفقهية فهل يعد الرجل مبيحاً للربا ؟! أم مجتهداً له أجر أن أخطأ وأجران إن أصاب ؟ كما بين خير الأنام ﷺ .

ثم إنك في النهاية مخير بين أن تأخذ بالرأي الذي يستريح إليه قلبك دون أن تصدر أحكاماً على علماء أفنوا أعمارهم في طلب الحق وتحصيله ، ومن أنت حتى تصدر أحكاماً بالكفر على علماء الأمة ؟! إن من أخس صفات هؤلاء المتنطعين أكلهم لحوم العلماء قال ابن عساكر: اعلم يا أخي وفقني اللّه وإياك لمرضاته وجعلنا ممن يخشاه ويتقيه حق تقاته أن لحوم العلماء مسمومة ، وعادة اللّه في هتك أستار منتقصيهم معلومة ، ومن أطلق لسانه في العلماء بالثلب بلاه اللّه قبل موته بموت القلب ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور : ٦٣]

ومن أمثلة تطاولهم على العلماء تطاولهم على الشيخ محمد الغزالي – رحمه الله – العالم الجيل ومن مجددي الإسلام في القرن العشرين فقد اتهموه بمعاداة السنة وليت الأمر اقتصر على القول فقط بل تعداه إلى تأليف الكتب في ذم الرجل والهجوم عليه(١) رحم الله الشيخ الغزالي لقد كان عالماً عاملاً – نحسبه كذلك ولا نزكى على الله أحداً – أفنى عمره في خدمة الإسلام كما لم يخدمه عالم في العصر الحديث ومات وهو يلقى محاضرة يدافع فيها عن الإسلام ضد أعدائه "ودفن في البقيع بين الإمام مالك وإبراهيم ابن النبي ﷺ " (٢).

كذلك لم يسلم منهم د. عبد الصبور شاهين العالم المستنير فقد رموه بالكفر بسبب كتاب ألفه "أبى آدم" وأقيمت ضده دعوى تكفير رفضت لأن د. عبد الصبور اجتهد في بحث مسألة من المختلف حوله في مسائل الدين فهو مأجور وإن أخطأ ، ولم يسلم منهم د. مصطفي محمود صاحب البرنامج العظيم " العلم والإيمان " بسبب كتابه "الشفاعة" بين فيه مفهومه للشفاعة التي أساء الناس فهمها ولم يعجب هذا سدنة الدين وكهان الإسلام فرموه بالكفر والخروج عن الملة ، والمدهش حقاً أن أغلب من كفَّر وخطَّأ هؤلاء العلماء لم يقرأ ما كتبوه إنما هم ببغاوات تردد ما تسمع ، ومن قرأ كتب هؤلاء العلماء لم يفهم ما قرأ ومن فهم لم يرق لمستوى هؤلاء العلماء الأجلاء ليقدر علمهم واجتهادهم !

ولقد حذر النبي من لعن المؤمن ومن قذفه وعد لذلك قتلاً .

---

(١) مثل كتاب " جنايات الشيخ الغزالى على الحديث وأهله " لأشرف بن عبد المقصود ، و كتاب " حوار هادئ مع محمد الغزالى " لسليمان العودة .

(٢) نقلا عن الأستاذ عمر خالد الداعية المعروف .

قال ﷺ " ومَن لَعَنَ مُؤْمِنًا فَهو كَقَتْلِهِ، ومَن قَذَفَ مُؤْمِنًا بكُفْرٍ فَهو كَقَتْلِهِ. " [متفق عليه] .

فكم مؤمن قتل هؤلاء ! وكم عالم لعنوه وقذفوه ! وإنا لله وإن إليه راجعون .

لقد دأب بعض المتنطعين من دعاة الإسلام على تأجيج الخلاف بين المسلمين على مسائل فرعية مع أن إبقاء الأخوة مع الخلاف في الرأي في المسائل الخلافية أولى من دفع المخالف إلى الشقاق والعداوة : إذا علمت من مخالفك أنه لا يبقى أخاً إلا ببقائه على ما هو عليه من أمر مرجوح ورأى مخالف للحق في نظرك فتركه على ما هو عليه أولى من دفعه إلى الشقاق والخلاف لأن بقاء المسلمين أخوة في الدين مع اختلافهم في المسائل الاجتهادية خير من تفرقهم وتمزقهم وبقائهم على خلافاتهم .. لا يجوز لمسلم أن يقاطع أخاه المسلم لرأى ارتآه، أو اجتهاد اجتهد فيه ما دام يعلم أنه تحرى الحق، واتبع ما يظن أنه الصواب، ولا يجوز في مثل هذه الحالة هجران أو تعزير، ولا شك أنه لو أن كل مختلفين تهاجرا لم يبق مسلم مع مسلم " (١)

وهؤلاء المتنطعون يفضلون تمزيق جماعة المسلمين مع تمسكهم برأيهم على رأب صدع الأمة مع قبول آراء المخالفين لهم !!

من سنة الإسلام إحسان الظن بالناس وعدم اتهام نواياهم .

وروى البخاري عن عمر بن الخطاب قوله " إن ناساً كانوا يؤخذون بالوحي في عهد رَسُول ﷺ وإن الوحي قد انقطع وإنما نأخذكم الآن بما

---

(١) نفسه ص٧ .

ظهر لنا من أعمالكم، فمن أظهر لنا خيراً أمناه وقربناه وليس لنا من سريرته شيء، اللَّه يحاسبه في سريرته، ومن أظهر لنا سوءاً لم نأمنه ولم نصدقه وإن قال إن سريرته حسنة " فشريعة الإسلام تقضى بألا يسئ المسلم الظن بغيره " مهما كان مخالفك مخالفاً للحق في نظرك فإياك أن تتهم نيته، افترض في المسلم الذي يؤمن بالقرآن والسنة ولا يخرج عن إجماع الأمة، افترض فيه الإخلاص، ومحبة الله ورسوله ﷺ والرغبة في الوصول إلى الحق، وناظره على هذا الأساس،وكن سليم الصدر نحوه.

لا شك أنك بهذه الطريقة ستجتهد في أن توصله إلى الحق إن كان الحق في جانبك وأما إذا افترضت فيه من البداية سوء النية ، وقبح المقصد فإن نقاشك معه سيأخذ منحى آخر وهو إرادة كشفه وإحراجه ، وإخراج ما تظن أنه خبيئة عنده، وقد يبادلك مثل هذا الشعور، فينقلب النقاش عداوة، والرغبة في الوصول إلى الحق رغبة في تحطيم المخالف وبيان ضلاله وانحرافه." (١)

وكثير من هؤلاء المتنطعين ما يكاد أحد يناقشه في مسألة من المسائل ويختلف معه فيها إلا وانتفخت أوداجه ورمى محدثه بسوء النية وقبح الطوية ومعاداة السنة ومخالفة السلف !

عدم الأخذ بسنة التدرج

بعض المتنطعين يريد ممن يدعوه أن يلتزم بكل ما يلزموه به دفعة واحدة ودون تفريق بين ما هو من الأصول وما هو من الفروع ، وما هو من الأركان وما هو من المكملات ، و ما هو من الفرائض وما هو

---

(١) عبد الرحمن بن عبد " القواعد الذهبية في أدب الخلاف " الخالق ص ٥ .

من النوافل ، ما هو متفق عليه وما هو مختلف فيه ، فمع إلزامهم للمدعو بالصلاة يلزمونه بعدم الصلاة في المساجد التي فيها قبور كمساجد السيدة زينب ، وسيدنا الحسين ، والسيدة عائشة ، والسيدة نفيسة وغيرها ، ويحرمون عليه لبس الملابس الإفرنجية ، وإسبال الإزار، وحلق اللحية ، وسماع الغناء ، والرسم وتصوير ، والعمل في البنوك مع تحريمهم عليه الزنا وشرب الخمر وأكل لحم الخنزير كل ذلك وغيره يريدونه أن يلتزم به دون تدرج مما يجعل الناس يردُّون ما يلزمونه به كله ، فبذلك يصدون عن دين الله والعجيب أنهم يعرضون الإسلام بهذه الطريقة في بلاد غير المسلمين فيقولون لمن تريد أن تدخل في الإسلام إن صوتك عورة فيجب ألا يسمع صوتك رجل حتى ولو كنت تقرئين القرآن ، وجسمك كله عورة فيجب ألا يظهر منك وجه ولا أيدي ، وخروجك من البيت حرام فيجب أن تتركي عملك وتلزمي بيتك وإذا دعوا رجلاً للإسلام ألزموه أول ما يلزمونه " جلباباً أبيض وعمامة فوقها عقال أو ليس فوقها عقال ! ما هذا ؟! أ هذه دعوة إلى الإسلام أم إلى تقاليد البادية العربية " (١)

والتدرج سنة كونية ، وسنة شرعية . ولهذا خلق الله السموات والأرض في ستة أيام وكان قادرا أن يقول كن فتكون .. وكذلك نرى خلق الإنسان والحيوان والنبات كلها تتدرج في مراحل حتى تبلغ نماءها وكمالها . فهذا من الناحية الكونية، وأما من الناحية الشرعية ، فقد بدا الإسلام بالدعوة إلى التوحيد وتثبيت العقيدة السليمة ، ثم كان التشريع شيئا فشيئا فقد فرضت الفرائض وحرمت المحرمات بالتدريج ، كما هو ثابت في فرض الصلاة والصيام والزكاة ، وتحريم الخمر وغيرها ولهذا

---

(١) محمد الغزالى " مستقبل الإسلام خارج أرضه " ص ٥٤

افترق القرآن المكي عن القرآن المدني وفي هذا تقول السيدة عائشة رضي الله عنها واصفة تدرج التشريع ونزول القرآن " إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل، فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبداً، لقد نزل بمكة على محمد ﷺ وإني لجارية ألعب: { بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ }. وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده " .

أراد عمر بن العزيز أن يعود بالحياة إلى هدى الخلفاء الراشدين الأربعة وذلك بعد أن يتمكن ويمسك الخيوط في يديه ولكن ابنه الشاب الغيور عبد الملك من الأتقياء المتحمسين ، ينكر على أبيه عدم إسراعه في إزالة كل بقايا الانحراف والمظالم والتعفية على آثارها ، ورد الأمور إلى سنن الراشدين فقال له يوماً : مالك يا أبت لا تنفذ الأمور ؟ فوالله ما أبالى ، لو أن القدور غلت بي وبك في الحق !

فكان جواب الأب الفقيه المؤمن : لا تعجل يا بني فإن الله ذم الخمر في القرآن مرتين وحرمها في الثالثة ، إني أخاف أن أحمل الناس على الحق جملة فيدعوه جملة ، فيكون من ذا فتنة .(١)

إن الله تعالى لم يدع شيئاً من الكرامة والبر إلا أعطاه هذه الأمة، ومن كرامته وإحسانه أنه لم يوجب عليهم الشرائع دفعة واحدة، ولكن أوجب عليهم مرة بعد مرة، فكذلك تحريم الخمر .(٢)

---

(١) الشاطبي " الموافقات " ج ٢ ص ١٤٢

(٢) " تفسير القرطبى " لقوله تعالى { "يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما"

إهمال الإصلاح الاجتماعي

فالواحد من هؤلاء قد تتعثر قدمه في القاذورات وتلال القمامة وهو يغدو ويروح إلى المسجد فلا تستوقفه هذه المناظر القبيحة والروائح الكريهة ، وقد تخترق أذنه أصوات آلات تنبيه السيارات أو مكبرات الصوت في المحال ، والأفراح التي تبيت حتى الفجر تصدح بأصوات منكرة في أحياء مكتظة بالسكان ، وفوضى المرور وعشوائية الباعة .. يرى كل هذا وغيره دون أن يكلف نفسه عناء إرشاد الناس وتعليمهم حسن السلوك وآداب الطريق وأهمية النظافة والنظام في حياة الشعوب كأن هذه الأمور ليست من الدين أو أنها ليست من مهمة رجال الدين إصلاحها مع أنها من صميم الدين ، وأولى واجبات رجال الدين فالناس تحب الدين وتتأثر بكلام رجاله فعلى رجال الدين أن ينبهوا الناس إلى السيئ من الأقوال والأعمال حتى تنصلح أحوالهم .

أتدرون لماذا لا يلتفت هؤلاء المتنطعون إلى سلبيات المجتمع في النظافة والنظام والسلوكيات ومحاولة إصلاحها ؟ لأن هذه السلبيات غير منصوص عليها في كتب السالفين – بالطبع لأنها لم تكن موجودة على أيامهم – ولو سجلوها لما كفَّ أصحابنا عن ترديدها في مواعظهم!! . أيها السادة إن الإسلام دين حضاري ومن أساسيات الحضارة النظافة والنظام والعمل والإتقان .

إن الوظيفة الرئيسية لكل دين جدير بهذا الاسم تهذيب طباع الإنسان ومواجهة غرائزه الحيوانية لكي يصبح إنساناً رفيع الخلق والطباع ومأمون في معاملاته ولا يمكن أن يقتصر معنى الدين على انقطاع الإنسان عن العمل وتركيز الجهد كله على عبادة الله فإن الله سبحانه ليس في حاجة إلى عبادة الناس ، حقاً إن الله سبحانه يقول : " وَمَا

خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ " والعبادة هنا يدخل فيها العمل وكسب الرزق والقيام بكل ما يصلح الأرض والناس "[١]

الثامن عشر : عدم مخاطبة الناس على قدر عقولهم

من غريب أمر المتنطعين أنهم يتحدثون في الفضائيات في مسائل لا ينبغي أن تناقش أمام العامة بل تناقش في مجالس العلماء الخاصة ، ولكنهم لا يراعون في دعوتهم اختلاف عقول الناس فيخاطبون عامة الناس بما لا يصح أن يخاطب به إلا الخاصة كالخلافات بين المذاهب وترجيح رأى على رأى ، أو الخلافات التي وقعت بين الصحابة حول القضايا السياسية والحكم ، وكتفصيل الكلام عن الفرق الإسلامية.. كما أنهم لا يراعون سن ونوع المخاطب مما يجعل حديثهم فتنة لبعض الناس ، وكثير من هؤلاء كانوا سبباً في الصد عن الدين فإن أحدهم ليجعل خطبته لشباب صغير السن في عمر الزهور عن عذاب القبر ، وما أدراك ما عذاب القبر عند هؤلاء ، إنه أقرب إلى أفلام الرعب منه إلى دين الله ، ويقارن الشاب الصغير بين ما يسمع من هذا الواعظ وبين ما يسمع من دعاة الشيطان الذين يحببونه في المعاصي ويزينون له الحرام وييسرنه له ، فيجد أن الواعظ قد سد أمامه كل أبواب الرحمة وفتح له كل أبواب النيران أما أولئك فقد فتحوا له كل أبواب الملذات . فماذا يفعل المسكين ؟ إنه شاب يريد أن يعيش حياته ويستمتع بها والدين – كما سمع من وعاظ السوء – يحرم عليه كل المباحات والملذات والطيبات ؟! فيفتن في دينه ويشك في كل ما يسمع ويلق بنفسه في بحر المعاصي والآثام !

---

(١) د . حسين مؤنس " المصريون والحضارة " ص ٧٥

ما ضر هؤلاء الوعاظ لو ترفقوا بهؤلاء الشباب ويسروا عليهم دينهم ولم يخاطبوهم بما لا تتقبله عقولهم ، ما ضرهم لو حببوا إليهم الإيمان وزينوه لهم بالحكمة والموعظة الحسنة ، ما ضرهم لو فتحوا أمام العاصي أبواب التوبة والمغفرة .

ولو سئل عن عذاب القبر قال إنه روضة من رياض الجنة للمؤمن وحفرة من حفر النار للكافر ومرتكب كبائر الذنوب .

عن عبد الله بن مسعود أنه قال : ما أنت بمحدث قوماً حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة. وقال ﷺ : " حدث الناس بما يفهمون أتحبون أن يكذب الله ورسوله ". وهذا محمول على بعض العلوم، كعلم الكلام أو ما لا يستوي في فهمه جميع العوام، فحكم العالم أن يحدث بما يفهم عنه، وينزل كل إنسان منزلته " (١)

إن المدرس ينبغي أن يكلم كل طالب على قدر فهمه وعقله فيجيبه بما يحتمله حاله ومن اشتغل بعمارة أو تجارة أو مهنة فحقه أن يقتصر به من العلم على قدر ما يحتاج إليه من هو في رتبته من العامة وأن يملأ نفسه من الرغبة والرهبة الوارد بهما القرآن ولا يولد له الشبه والشكوك فإن اتفق اضطراب نفس بعضهم بشبهة تولدت له أو ولدها له ذو بدعة فتاقت إلى معرفة حقيقتها اختبره فإن وجده ذا طبع موفق للعلم وفهم ثابت وتصور صائب خلى بينه وبين التعلم وسوعد عليه لما يجد من السبيل إليه وإن وجده شريراً في طبعه أو ناقصاً في فهمه منعه أشد المنع ففي اشتغاله مفسدتان تعطله عما يعود نفعه إلى العباد والبلاد وشغله بما يكثر من شبهة وليس فيه منفعة وكان بعض المتقدمين إذا

---

(١) " تفسير القرطبي " في قوله تعالى { إن الذين يكتمون ما أنزلنا }

ترشح أحدهم لمعرفة حقائق العلوم والخروج من العامة إلى الخاصة اختبر فإن لم يوجد خيراً أو غير منتهي للتعلم منع وإلا شورط على أن يقيد بقيد في دار الحكمة ويمنع أن يخرج حتى يحصل العلم أو يأبى عليه الموت ويقولون إن من شرع في حقائق العلوم ثم لم يبرع فيها تولدت له الشبه وتكثر عليه فيصير ضالاً مضلاً فيعظم على الناس ضرره وبهذا النظر قيل نعوذ باللّه من نصف فقيه أو متكلم. (١)

كذلك فإن خطابهم الديني واحد لكل فئات المجتمع المختلفة بل لكل بلاد المسلمين المتباينة والمدهش حقاً أن خطابهم الديني الواحد لكل مسلم في كل زمان ومكان ، فعندهم أن فروع الدين ، المختلف عليها ، يجب أن يلتزم بفهمهم الخاص لها : المسلم البدوي ، والخليجي ، والمصري ، والعراقي ، والمغربي بل والروسي ، والأمريكي ، والفرنسي ، والهندي ، والإندونيسي .. على ما بين هؤلاء من اختلاف كبير جداً في الثقافة والتعليم والعادات والتقاليد !! فإذا كانت المسلمة في الخليج يمكن أن تتقبل النقاب فهل نلزم به المسلمة الأوربية والأمريكية ؟ ونجعله لها فريضة واجبه ، وإذا كان البدوي يتقبل إرسال لحيته ولبس الجلباب والعمامة فهو يعتبرها من ميراث الأجداد ومن كمال الرجولة ، فهل من المنطق أن أفرض على المسلم الحضري أو الذي يعيش في الغرب إرسال لحيته ولبس الجلباب والعمامة حتى يكون مسلما ؟! وإذا كان البدوي والخليجي يفضل الأكل بيديه لأنه لم يتعود استعمال الشوك والسكاكين ويفضل الجلوس على الأرض وهو يأكل فهل من الإسلام أن ألزم مسلمي العالم كله بهذه العادات وأجعلها لهم دينا ؟!

---

(١) الإمام المناوى " فيض القدير في شرح الجماع الصغير " .الجزء الثالث حرف الحاء .

مما ينكر من التشدد أن يكون في غير مكانه وزمانه كأن يكون في غير دار الإسلام وبلاده الأصلية أو مع قوم حديثي عهد بإسلام أو حديثي عهد بتوبة فهؤلاء ينبغي التساهل معهم في المسائل الفرعية والأمور الخلافية والتركيز معهم على الكليات قبل الجزئيات والأصول قبل الفروع تصحيح عقائدهم أولا فإذا اطمأن إليها دعاهم إلى أركان الإسلام ، ثم إلى شعب الإيمان ثم إلى مقامات الإحسان "(١) .

إلزام الناس بما لم يلزمهم به الله تعالى

بعض المتنطعين يريدون أن يشرعوا للناس ويلزمونهم بما لم يلزمهم به الله تعالى فيجعلون السنن فرائض ، والمكروهات محرمات . والمفروض ألا نلزم الناس إلا بما ألزمهم الله تعالى به جزماً وما زاد على ذلك فهم مخيرون فيه إن شاءوا فعلوا وإن شاءوا تركوا .

يقول تعالى : ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ وَلَوْلاَ كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِي بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى : ٢١] أي ابتدعوا لهم من الدين ما لم يبح الله لهم ابتداعه . " ولطالما قلت : إن حسبنا من المسلم في هذا العصر أن يؤدى الفرائض ويجتنب الكبائر لنعتبره في صف المسلمين وأنصاره ما دام ولاؤه لله ورسوله وإن ألمَّ ببعض الصغائر من المحرمات فعنده من الحسنات مثل : الصلوات الخمس ، وصلاة الجمعة ، وصيام رمضان ، وغيرها ما يكفر عنه الصغائر ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود : ١١٤]

﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا﴾ [النساء : ٣١] (٢)

(١) د. يوسف القرضاوى " الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف " ص ٤٤

(٢) د. يوسف القرضاوى " الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف " ص ٤٣

عن طلحة بن عبيد الله " أن أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ ثائر الرأس فقال : يا رسول الله أخبرني بما فرض الله على من الصيام؟ فقال: شهر رمضان إلا إن تطوع. فقال: أخبرني بما فرض الله على من الزكاة؟ فأخبره رسول الله ﷺ بشرائع الإسلام. قال: والذي أكرمك لا أتطوع شيئا ولا أنقص مما فرض الله على شيئا. فقال رسول الله ﷺ : أفلح إن صدق، أو دخل الجنة إن صدق " [متفق عليه]

وهذا التشدد في إلزام الناس بما لم يلزمهم به الله تعالى لا يطيقه كل الناس ويوقع كثير من الناس في الحرج فهم لا يقدرون على القيام به والمتنطعون لا يكفون عن إلزامهم به .

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج : ٧٨]

أي ما كلفكم ما لا تطيقون، وما ألزمكم بشيء يشق عليكم إلا جعل اللّه لكم فرجاً ومخرجاً، ولهذا قال ﷺ : "بعثت بالحنيفة السمحة ".(١)

ومما يؤخذ عليهم كذلك تحريمهم لكثير من المباحات يقطعون فيها بالتحريم مع أن التحريم لا يكون إلا بنص قطعي الثبوت قطعي الدلالة، وهم لا يعلمون أن من حرَّم ما أحل الله كمن أحلَّ ما حرم الله يقول تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ لْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة : ٨٧]

قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في رهط من أصحاب النبي ﷺ قالوا: نقطع مذاكيرنا، ونترك شهوات الدنيا، ونسيح في لأرض كما يفعل الرهبان، فبلغ ذلك النبي ﷺ فأرسل إليهم فذكر لهم ذلك – قالوا: نعم،

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٤٥٥

فقال النبي ﷺ : " واللَّهِ إنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وأَتْقَاكُمْ له، لَكِنِّي أصُومُ وأُفْطِرُ، وأُصَلِّي وأَرْقُدُ، وأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فمَن رَغِبَ عن سُنَّتي فليسَ مِنِّي " [رواه : البخاري]

﴿ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ ﴾ يعنى بالطيبات: اللذيذات التي تشتهيها النفوس وتميل إليها القلوب، فتمنعوها إياها، كالذي فعله القسيسون والرهبان، فحرموا على أنفسهم النساء والمطاعم الطيبة والمشارب اللذيذة، وحبس في الصوامع بعضهم أنفسهم، وساح في الأرض بعضهم. يقول تعالى ذكره: فلا تفعلوا أيها المؤمنون كما فعل أولئك، ولا تعتدوا حد الله الذي حد لكم فيما أحل لكم وفيما حرم عليكم فتجاوزوا حده الذي حده، فتخالفوا بذلك طاعته، فإن الله لا يحب من اعتدى حده الذي حده لخلقه فيما أحل لهم وحرم عليهم " (١)

"ولا تعتدوا " قيل : المعنى لا تعتدوا فتحلوا ما حرم الله فالنهيان على هذا تضمنا الطرفين؛ أي لا تشددوا فتحرموا حلالا، ولا تترخصوا فتحلوا حراما؛ قاله الحسن البصري. وقيل: معناه التأكيد لقوله: "تحرموا "؛ قاله السدي وعكرمة وغيرهما؛ أي لا تحرموا ما أحل الله وشرع " (2)

ويقول تعالى أيضاً :

﴿ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ ﴾ [النحل: ١١٦]

قال ابن وهب قال مالك: لم يكن من فتيا الناس أن يقولوا هذا حلال وهذا حرام، ولكن يقولوا إياكم كذا وكذا، ولم أكن لأصنع هذا. ومعنى

(١) " تفسير الطبرى " ج١٠ ص ٥٢٣ .
(٢) " تفسير القرطبى " ج ٦ ص ٢٦٣

هذا: أن التحليل والتحريم إنما هو لله عز وجل، وليس لأحد أن يقول أو يصرح بهذا في عين من الأعيان ، إلا أن يكون البارئ تعالى يخبر بذلك عنه . وما يؤدى إليه الاجتهاد في أنه حرام يقول : إنى أكره كذا. وكذلك كان مالك يفعل اقتداء بمن تقدم من أهل الفتوى." (١)

ويدخل في هذا كل من ابتدع بدعة ليس فيها مستند شرعي، أو حلل شيئاً مما حرم اللّه أو حرم شيئاً مما أباح اللّه بمجرد رأيه وتشهيه، ثم توعد على ذلك فقال: ﴿إن الذين يفترون على اللّه الكذب لا يفلحون﴾ أي في الدنيا ولا في الآخرة ؛ أما في الدنيا فمتاع قليل، وأما في الآخرة فلهم عذاب أليم، كما قال: ﴿نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ﴾ " (٢)

وما أكثر المباحات التي حرمها المتنطعون ! وما أكثر المندوبات التي فرضها المتفيقهون ! ولقد كثرت تلك الكتيبات وانتشرت بين أيدي الشباب التي تحرم العادات كلبس " الدبلة " للخاطب والمتزوج ! والاحتفال بالمولد النبوي حتى بذكر الله وقراءة القرآن ! والاحتفال بأعياد الميلاد وإن كانت خالية من الإسراف والبذخ! والاحتفال بعيد الأم وإن كان فيه صلة رحم مقطوعة ! وتحريم جميع أنواع الموسيقا والغناء حتى ولو كان دفاً يعلن به النكاح ! وتحريم حلق اللحية أو أخذ شيء منها ! وتحريم التصوير وإن كانت صورة في بطاقة شخصية أو جواز سفر ! وتحريم تعليم المرأة وإن كان ولابد فتتعلم العلوم الدينية فقط وما عدا ذلك فحرام ! وتحريم كشف المرأة وجهها ، وإن كان لضرورة تقتضيها حاجة العمل ! ...

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٠ ص ١٩٦

(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٦٠٩

وأصبح التنافس بين هؤلاء الكتاب المتنطعين على البراعة في تحريم المباحات وفرض المندوبات !!

إلقاء الكلام على عواهنه

ومن غريب أمرهم وتدليسهم على الناس إلقاء الكلام على عواهنه دون بيان له وتحديد مفهومه الصحيح ، كسرد الآيات والأحاديث في القضية التي يريدون أن يثبتوها دون توضيح أو بيان لهذه الآيات وتلك الأحاديث مما يجعل الناس يأخذونها على ظاهرها أو يذهبون في فهمها كل مذهب كتلك الآيات والأحاديث التي تتحدث عن الدنيا وتزهد الناس فيها دون بيان للمقصود بالدنيا المذمومة في هذه النصوص مما يقر في ذهن السامع أن الطريق الأمثل لرضا الله تعالى ترك عمله والتفرغ للعبادة وعدم الضرب في الأرض ولا السعي فيها ، والسامع إما يقتنع بترك الدنيا والتفرغ للعبادة ، أو لا يقتنع لشدة حاجته للعمل من أجل أسرته وأولاه ومستقبله وطموحه فإنه يغض الطرف عن هذه النصوص من باب " إن قالوا : حرام فقل حرام : ولكن اللذاذة في الحرام " [(١)] وبهذا يكونون قد أساءوا إلى دين الله وأفسدوا دنيا الناس . ما ضرهم لو بينوا للناس أن طلاب الدنيا المذمومة هم الذين يرفضون الجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمة الحق مكتفين بمتاع الدنيا عن نعيم الآخرة .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ [التوبة : ٣٨]

طلاب الدنيا المذمومة هم الذين يغفلون عن شرع الله ولا يرجون لقاء الله لسوء ما قدمت أيدهم .

---

(١) بيت لأبى نواس يتكلم فيه عن الخمر .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا وَرَضُواْ بِالْحَياةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمُ النُّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾
[يونس : ٧-٨]

طلاب الدنيا المذمومة هم من يصدون عن سبيل الله ويحتكمون إلى الهوى فيضلهم عن شرع الله .

﴿ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً أُوْلَئِكَ في ضَلاَلٍ بَعِيدٍ ﴾[إبراهيم: ٣]

طلاب الدنيا المذمومة الذين اتخذوا الدين لهوا و لعبا واغتروا بقوتهم وأموالهم وسلطتهم ونسوا الله وشرعه .

﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَاء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ * الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ [الأعراف : ٥٠ – ٥١]

أما من يملك الدنيا في يده ويسخرها لطاعة الله فهذا هو المؤمن الطالح الذي اقتدى بالسلف الصالح الذي ملكوا الدنيا وملئوها عدلا ورحمة وعلما وحضارة لقد كان من دعائه ﷺ " اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي وأصلح لي آخرتي التي فيها معادى واجعل الحياة زيادة لى في كل خير واجعل الموت راحة لى من كل شر " [رواه : مسلم]

فكيف نطلب من الناس أن يتركوا دنيا العمل والجهاد والتقدم والعلم ؟
ومن هذا الباب أحاديث الشفاعة التي يسردها الواعظ متتابعة دون شرح لمعناها ولا لمن المستحق لها ومن المحروم منها مما يترتب عليه

الفهم الخاطئ للشفاعة وهو أن الله تعالى يحكم على أهل الكبائر من أمة محمد بدخول النار لكن النبي يرفض هذا ويصر على عدم دخولهم فيها هكذا كأن سيدنا محمد أرحم بالمسلمين من الله تعالى وحاشى لله أن يكون هذا هو مفهوم الشفاعة ، إنما مفهومها كما بينته الآيات الكريمة هو أن الله تعالى قضت مشيئته ورحمته بالعفو عمن ماتوا ولم يشركوا به شيئا لكن قلت حسناتهم عن سيئاتهم شيئا يسيرا فتداركتهم رحمة الله وعفوه فيأذن لمن يشاء من عباده الصالحين تكريما لهم ورفعا من قدرهم بأن يشفع في هؤلاء فيشفع أو أن الله تعالى يستشفع من يشاء من عباده الصالحين في الموحدين من أهل الكبائر الذين قضوا أجلهم في النار بأن يخرجوهم منها وعلى ذلك فمفهوم الشفاعة عند أهل السنة مقيد بأمرين: رضا الله تعالى عن الشافع ليشفع، ورضاه عن المشفوع له وفي ذلك يقول تعالى ﴿مَن ذَا الذي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾

[البقرة : ٢٥٥]

﴿وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾

[الأنبياء : ٢٨]

هذا بالإضافة إلى الشفاعة العظمى للناس جميعا من لدن آدم إلى يوم القيامة والتي اختص بها سيدنا محمد لإراحة أهل الموقف والحشر من أهوال القضاء بينهم والفراغ من حسابهم.

ومن عجيب أمر هؤلاء المتنطعين أنهم في الوقت الذي يطالبون الناس بالالتزام الشديد بالسنن والمندوبات وتحذيرهم المبالغ فيه من الصغائر واللمم فإنهم يذكرون للناس أحاديث ظاهرها يدل أن النبي يحول بين دخول أي مسلم والنار وإن زنا أو سرق أو ارتكب كبائر الإثم! فلماذا إذن هذا التشدد في التمسك بالسنن وتجنب الصغائر إذا

كان أهل الكبائر سيدخلون الجنة !! والحقيقة غير ذلك فأهل الكبائر يدخلون النار – إن ماتوا دون توبة نصوحا – ويأذن له تعالى كما بينا لمن يشاء من النبيين والصديقين والشهداء والعلماء بأن يشفعوا فيهم فيدخلون الجنة بعد قضاء أجلهم في النار .

ومن هذا الباب أيضا سردهم لنصوص العذاب لدرجة تجعل الناس يقنطون من رحمة الله ويوقنون بأنه لن ينجو من النار أحد ، وسردهم لأحاديث الشفاعة سردا متواليا دون فقه فيقر في روع كل مسلم أنه لن يدخل النار أحد من أمة محمد ﷺ فمحمد لن يرضى أن يدخل أحد من أمته النار وإن لم يعمل من الخير شيئا ؟

ومن هذا الباب حديث " من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان" الذي يفهم منه من لا فقه له أنه دعوة إلى إجبار الناس بالقوة على تغير المنكر بقطع النظر عن سلطة الداعي على المدعو .

والأمثلة على ذلك كثيرة لذا يقول العلماء لا حديث بغير فقه كما أنه لا فقه بغير حديث فإذا ذكر الإنسان حديثاً فعليه إن يبين المراد منه وأقوال العلماء فيه ولا يترك الناس تفهم كما تشاء !

إن عيب هؤلاء عدم فهم الدين ككل متكامل فإذا تحدث عن آيات العذاب لابد أن يتحدث عن آيات الرحمة ، وإذا تحدث عن الزهد في الدنيا لابد أن يتحدث عن السعي والعمل الصالح أما الاكتفاء بالجزء دون بقيته يكون كمن قرأ ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ [الماعون : ٤] دون تكملة للآية الكريمة .

الاعتلال النفسي ، والانحراف السلوكي

إن كثيراً من هؤلاء المتنطعين يجمعون إلى جانب كلالة العقل اعتلال النفس وانحراف السلوك ، وإذا دخل مجال الدعوة واحد هذه صفاته فلا تنتظرن منه إلا الفساد والإفساد " الواقع إن الأمراض النفسية عند هؤلاء المتعصبين للفرعيات تسيطر على مسالكهم وهم باسم الدين ينفسون عن دنايا خفية ! وعندما يشتغل بالفتوى جزار فلن تراه أبدا إلا باحثا عن ضحية " (١)

ولو درست حياة هؤلاء لوجدت العجب فإنك ستجد كثيراً منهم اشتهروا إلى جانب الغباء والفشل في التعليم ، بالتعصب وانحراف المزاج وإثارة المشاكل ويندر أن تجد واحداً من هؤلاء متفوقاً علميّاً أو رقيق القلب ، حلو المعشر ، سمح الخلق ، محبوبا من أهله وعشيرته ومن رؤسائه في العمل . كنت أعرف شاباً لم يكمل تعليمه .. ما ترك منكراً إلا فعله .. غليظ الطبع قاسى القلب كان الناس يتحاشونه لسوء خلقه انقطعت معرفتي به ثم رأيته بعد مرور ما يقرب من عشر سنوات فإذا به كث اللحية حتى لتقارب صدره قصير الثياب حتى ليقارب ركبتيه تعجبت من هذا التحول الكبير ، وعندما تيقنت من أنه أحد أعضاء جماعة إرهابية زال عجبي ، وهذه القصة تكررت بعينها مع آخرين ممن أعرف ، وليس معنى هذا أن الله لا يقبل توبة العاصي وأن من فسد في بداية حياته محكوم عليه بالشقاء الأبدي لا إنما معنى ذلك أن دين الله لا يناسبه ولا يصلحه إلا اللين والرفق ، والعمل والتعامل بالمسامحة والتسامح .

---

(١) هموم داعية ، محمد الغزالي ص١٨

طلب الرياسة وتعجل الشهرة وذيوع الصيت

إن لعالم الدين مكانة عظيمة في المجتمع وكثير من الناس من يحب مجالسة العلماء فضلا عن أن يكون واحداً منهم وليس في الإسلام رجال دين بالمفهوم المسيحي بمعنى أن علم الدين قاصر على بعض الرجال دون سواهم وليس من حق أي إنسان ، عندهم ، أن يكون من رجال الدين إلا إذا انقطع للدين وتفرغ للعبادة وحصل على شهادة عالية من كليات اللاهوت ، أما في الإسلام فيستطيع أي إنسان أن يعلم الناس ويعظهم بشروط ذكرناها في غير هذا الموضع ، وبعض الناس اعتقد،خطأ، أن التصدي للدعوة أمر سهل يسير فما عليه إلا أن يرسل لحيته ، ويلبس جلبابا قصيرا أبيض ، ويحفظ بعض الآيات وبعض الأحاديث ، ويقرأ بعض الكتب أو يستمع إلى بعض شرائط الكاسيت فيكون بذلك عالم ! ويناديه الناس بفضيلة الشيخ ! وغاب عن هؤلاء الناس أن عالم الدين هو من يشهد له علماء الدين بالعلم وليس العامة كما يظن وأن عالم الدين ليس من لبس ملابس علماء الدين إنما من درس علوم الدين : عقيدة و تفسير وفقه وعلم أصول فقه ومصطلح حديث وسيرة .. ودرس علوم اللغة العربية : نحو وصرف وبلاغة وعلم لغة ... ودرس الواقع وفقهه : سياسيّاً واجتماعيّاً واقتصاديّاً ... وفوق كل هذا لابد أن يكون من أرباب الفهم وأصحاب العقول المستنيرة ، ولكن هذا الطريق صعب ومضن وشاق ويحتاج إلى سنوات وسنوات وصاحبنا لا طاقة له بهذا العناء ولا عقل له يستوعب هذه العلوم فليسلك أقصر الطرق وهو إرسال اللحية ولبس الجلباب القصير الأبيض ويضع على رأسه عمامة و في جيبه سواكا ، وبين عشية وضحاها يصبح عالما يؤم الناس في الصلاة ويفتيهم في أمور الدين والدينا ! كالذي –

مـع فـارق التـشبيه – يريـد أن يـصبح إنـساناً عـصرياً متحـضراً فيخلـع جلبـاب قريتـه ويلبس بنطلـون جينـز وفانلـة عليها العلـم الأمريكـي ويحلـق شعره ويدخن السجائر الأمريكية ويشاهد الأفـلام الأمريكيـة ويظـن نفسه أمريكا !

إن حب الرياسة قد يورد صاحبه موارد الهلكة فقد يجرئـه علـى الفتوى بغير علم وعلى الكلام في الدين بالرأي ، وحب الرياسة والسمعة جعل هؤلاء المتنطعين يستفتون في المسائل الدقيقة فيستحى أحدهم أن يقول الله أعلم بل يكابر ويفتى برأيه أو بما سمع دون تحقق مما سمع فيَضِل ويُضِل وما ضره لو قال لا أعلم فيما لا علم حقيقي به اقتداء بالملائكة ﴿قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾

[البقرة : ٣٢]

واقتـداء بالأنبيـاء والفـضلاء مـن العلمـاء ، فـالنبي وهـو سـيد ولـد آدم وخاتم الأنبياء وإمام المرسلين عندما سأله رجل " أى البقاع شر ؟ قال: (لا أدرى حتى أسأل جبريل) فسأل جبريل ، فقال : لا أدرى حتـى أسأل ميكائيل ، فجاء فقال : خير البقاع المساجد ، وشرها الأسواق " .

" وقال الصديق للجدة : ارجعي حتى أسأل الناس. وكان علي يقول: وأبردها على الكبد، ثلاث مرات. قالوا وما ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: أن يسأل الرجل عما لا يعلم فيقول: الله أعلم. وسأل ابن عمر رجل عن مسألة فقال: لا علم لي بها ، فلما أدبر الرجل. قال ابن عمر: نعم ما قال ابن عمر، سئل عما لا يعلم فقال لا علم لي به! ذكره الدارمى في مسنده ... وقال مالك بن أنس : سمعت ابن هرمز يقول : ينبغى للعالم أن يورث جلساءه من بعده لا أدرى حتى يكون أصلا في أيديهم ، فإذا

سئل أحدهم عما لا يدرى قال: لا أدرى. وذكر الهيثم بن جميل قال: شهدت مالك بن أنس سئل عن ثمان وأربعين مسألة فقال في اثنتين وثلاثين منها: لا أدرى. قلت: ومثله كثير عن الصحابة والتابعين وفقهاء المسلمين. وإنما يحمل على ترك ذلك الرياسة وعدم الإنصاف في العلم. قال ابن عبد البر: من بركة العلم وآدابه الإنصاف فيه، ومن لم ينصف لم يفهم ولم يتفهم. روى يونس بن عبد الأعلى قال: سمعت ابن وهب يقول: سمعت مالك بن أنس يقول: ما في زماننا شيء أقل من الإنصاف . قلت: هذا في زمن مالك فكيف في زماننا اليوم الذي عم فينا الفساد وكثر فيه الطغام (أوغاد الناس) ! وطلب فيه العلم للرياسة لا للدراية ، بل للظهور في الدنيا وغلبة الأقران بالمراء والجدال الذي يقسى القلب ويورث الضغن، وذلك مما يحمل على عدم التقوى وترك الخوف من الله تعالى . " (١)

والاستسهال " والفهلوة " داء أصاب الأمة في مقتل فما يكاد ينجح مشروع إلا وتجد أن كثيرا من الناس لجا إليه على اختلاف خبراتهم فإذا فتح خباز مشروع فرن تنتج مخبوزات ونجح فإن صانع الأحذية وصاحب المكتبة والكهربائى .. يحولون محالهم إلى أفران تنتج المخبوزات ، ومثل هذا تجده في صالونات الحلاقة والمقاهي ، ومحال التليفون المحمول ومراكز الاتصالات ... وإذا ذاع صيت عالم وجدت أصحاب المهن : الكهربائى والمبيض والنقاش .. والموظفين في شتى الهيئات والمصالح ، وطلاب المدارس و الجامعات ، يصعدون المنابر ويعقدون مجالس العلم والإفتاء !!

---

(١) تفسير القرطبى ج ١ ص ٢٨٦

الجدل والمراء والخصومة

إن هـؤلاء المتنطعـين مـا أعطـوا شـيئا أكثـر مـن الجـدال والمـراء والخصومة فهم لا يقبلون رأيا يخالف رأيهم لذا يظل أحدهم يجادل بالتي هـي أسوأ حتـى ينتهي الجدال إلـى خصومة وتتبادل فيـه الشتائم وربما انتهي إلى تشابك بالأيدي وقطيعة أبدية ، ما ضرهم لو عرضوا وجهة نظرهم بالحكمـة والموعظـة الحسنة وإن كـان جدال فيكون بـالتي هـي أحسن كما أمر الله تعالى ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَـةِ وَالْمَوْعِظَـةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالتي هي أَحْسَنُ﴾ [لنحل : ١٢٥]

التفقه في الدين إنما يحمد إذا كان للعمل لا للمراء والجدال .

قال الإمام أبو حامد الغزالي: المراء: طعنُك في كلام الغير لإظهار خَلل فيه، لغير غرض سوى تحقير قائله وإظهار مزيَّتِك عليه؛ قال: وأما الجدالُ فعبارةٌ عن أمر يتعلّقُ بإظهار المذاهب وتقريرها. قال: وأما الخصومةُ فلِجَاجٌ في الكلام ليستوفي به مقصودَه من مال أو غيره، وتارة يكون ابتداءً وتارة يكون اعتراضاً؛ والمِراء لا يكون إلا اعتراضاً."[١] .

لقد نهي القرآن عن الجدال إلا بالتي هي أحسن حتى مع من خالف لعقيدتك فما بالك بالمسلم الذي على دينك ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالتي هي أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالذي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [عنكبوت : ٤٦]

ونهي النبي عن الجدال في القرآن الكريم بغير علم وبهدف ضرب آياته بعضها ببعض " لا تجادلوا في القرآن، فإن جدالا فيه كفر "

[حديث صحيح راه الطيالسى والبيهقي]

(١) " الأذكار " للنووى كتاب حفظ اللسان .

" لا تُجادِلوا بالقرآنِ ، ولا تُكَذِّبوا كتابَ اللهِ بعضَه ببعضٍ ؛ فواللهِ ! إنَّ المؤمنَ لَيُجادِلُ بالقرآنِ فيُغلَبُ ، وإنَّ المنافقَ لَيُجادِلُ بالقرآنِ فيَغلِبُ "
[صححه للألباني]

وغالبا ما يكون سبب الجدال عدم العلم فالمتنطع يكون قد قرأ رأيا أو فتوى واعتقد أنها هي الصحيحة وجهل ببقية آراء العلماء أو علمها ولم يأخذ بها .

ونهي القرآن الكريم عن الجدال بغير علم فقال تعالى ﴿هَاأَنتُمْ هَؤُلاء حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران : ٦٦]

والجدال بالباطل من وحى الشياطين ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام : ١٢١]

وأخبر النبي ﷺ أن أبغض الناس إلى الله أولئك المجادلين بالباطل شديدي الجدل والولع به .

وعن عائشة عن النبي ﷺ قال : " إنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إلى اللَّهِ الأَلَدُّ الخَصِمُ " [متفق عليه]

الأَلَدُّ : شديد الجدال ، والخَصِم : المولع بالخصومة الماهر بها.

ولقد جعل النبي ﷺ أن الجدل من طرق الضلال والباعث عليه .

عن أبى أمامة قال قال رسول الله ﷺ ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل . ثم قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف : ٥٨ [[رواه أحمد والترمذي وابن ماجه] .

والمراد بالجدل المنهي عنه في القرآن ضرب القرآن بعضه ببعض ، والأحاديث بعضها ببعض لترويج مذاهب المتجادلين وآراء مشائخهم من غير رغبة حقيقية في التعلم والوصول للحق .

ولقد حث النبي ﷺ على ترك المراء والجدل ووعد تارك الجدل ببيت في الجنة .

وعن أبى أمامة قال : قال رسول الله ﷺ " مَن ترَكَ المِراءَ وَهو مُبطِلٌ بُنيَ لَهُ بيتٌ في رَبَضِ الجنَّةِ ومَن ترَكَهُ وَهو مُحِقٌّ بُنيَ لَهُ في وسطِها ومَن حسُنَ خُلقُهُ بُنيَ لَهُ في أعلاها " [رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه والبيهقي] .

إن الداعي إلى الدين عليه أن يؤلف الناس حول القرآن الكريم ويحببهم في دين الله وإذا أحس أن الناس بدءوا يختلفون وأن الجدل بدأ يكثر فليه أن ينهي الحديث محافظا على وحدة المسلمين ومغلقا باب الشيطان .

قال رسول الله ﷺ " اقْرَؤوا الْقُرْآنَ مَا ائْتَلَفَتْ قُلُوبُكُمْ، فَإِذَا اخْتَلَفْتُمْ فَقُومُوا عَنْهُ " [متفق عليه] .

لقد ابتلينا بأناس متعالمين يدعون الفهم في كل شيء رغم أنهم لا يحسنون عمل أي شيء حتى مهنهم ، تسمع موظفا لم يلعب كرة القدم حتى وهو صغير في الشارع ينتقد كبار مدربي فرق الكرة ! وهذا عامل أمي لا يحسن القراءة والكتابة يتكلم في السياسة ولا تعجبه قرارات السياسيين ويتهمهم بالعمالة والجهل والجبن ، وأنه لو كان بيده الأمر لفعل كذا وكذا وإذا أوكلت إلى هذا العامل عملا أفسد ولم يصلح ولا يقوم بالوفاء بواجباته .

ليت أمر هؤلاء المتنطعين اقتصر على إساءتهم لأنفسهم إذن لهان الخطب لكن الأدهى والأمر أنهم أساءوا بفهمهم المعوج هذا إلى الإسلام وعموم المسلمين مما جعل ديننا الحنيف " الإسلام " سبة في أفواه أعدائه وغلاً في أعناق أنصاره إن مصيبة هؤلاء أنهم جعلوا من عاداتهم

الجاهلية البدوية ، وأمراضهم النفسية دينا يشغبون بها على دين الله تعالى . ويفرقون بها وحدة المسلمين .

لقد آن للأمة الإسلامية أن تتوحد حتى تصد مطامع أعدائها في بلادها فهلا ترك الناس المذهبية الدينية و وتركوا لعلماء أمتهم – وهم بحمد الله كثيرون في كل مجال – مهمة الفتوى والتفسير ، وأن يكتفي وعاظنا بتعليم الناس ما هو معلوم من الدين بالضرورة تلك الأمور غير المختلف عليها والتي أجمعت عليها الأمة والتي لا ينكرها مسلم كفرائض الإسلام و الأخلاق واستخلاص العبرة من قصص الأنبياء والصالحين .. بدلا من هذه الفوضى الدينية فكل من قرأ أو سمع حديثاً أصبح مفتياً وكل من عرف معنى آية أصبح مفسرا ، وكل من أرسل لحيته أصبح داعية !!

من المكلف بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟

إن جميع المسلمين مكلفون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفي هذا يقول تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ﴾ [آل عمران : ١١٠] لكن الناس متفاوتون في معرفتهم بأمور الدين فكيف يطالب بالقيام به كل الناس ؟

إن هناك أموراً في الدين لا يجهلها مسلم تسمى معلوم من الدين بالضرورة كمعرفة أن الصلاة فريضة وأن الخمر محرمة وأن الحج يكون إلى بيت الله الحرام في أشهر معلومات وهذه الأمور يمكن أن يدعو الناس جميعاً إليها فإذا كان هناك إنسان لا يصلى بغير عذر فهل يحتاج هذا الإنسان إلى عالم من علماء الدين ليقول له صل ؟ بالطبع لا ، إنما هذا واجب على كل مسلم له به علاقة ، وإذا كان إنسان

يكذب فهل يحتاج إلى عالم دين ليقول له أن الكذب الحرام ؟ بالطبع لا، إنما يمكن أن ينصحه بترك الكذب أي مسلم ، أما الأمور الخلافية والمباحث العلمية فلا يجب أن يتصدى للإفتاء فيها إلا العلماء وإذا اختلفوا جاز للعامة الأخذ بما الميسر من أقوالهم لكن يجب أن يراعى المسلم أموراً مهمة حال دعوته غيره منها :

١- أن تكون هذه الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة .

٢- أن يتخير المكان والزمان المناسبين للدعوة .

٣- أن يكون من الملتزمين بما يدعو غيره له .

٤- ألا يتعدى حدود علمه فيتكلم في الدين بغير علم .

لكن الذي يحدث أن الواعظ يبدأ بالأمور العامة ثم ينسى قدره ويغتر بعلمه فيخوض في الحديث فيما لا علم له به ويفتى الناس ويترك مجال المعلوم من الدين بالضرورة إلى الإفتاء في دقائق الأمور والذي يغريه بذلك إقبال الناس عليه وتجمعهم حوله فيتوهم في نفسه العلم ومن كثرة ثناء الناس عليه يسيطر عليه إحساس بأنه أصبح عالماً ويقول للناس استفتوني أفتكم وهنا يكون البلاء وتحدث الكارثة ، ويدلى بدلوه في أمور الدين والدنيا والسياسة والحرب والسلام والاقتصاد وهذه آفة كل الوعاظ والدعاة ولم يسلم منهم إلا القليل النادر الذي اكتفي بالأمر بما هو معلوم من الدين بالضرورة .

وعامة الناس لا تستطيع التفرقة بين الواعظ والعالم فكلاهما يتكلم في الدين وكلاهما يستشهد بالقرآن والحديث الشريف وربما يكون الواعظ أكثر مصداقية من العالم بما يلتزم به من مظاهر الدين كإرسال اللحية ولبس الجلباب الأبيض والغترة، كما أن الناس ، ويا للعجب ، يؤثر فيهم

من يخرج على الحاكم وينتقد المسئولين فيظنون أنه لا يخشى في الله لومة لائم حبذا لو قبض عليه رجال أمن الدولة عدة مرات فإنه يصبح ، في نظر العامة ، من العلماء الكبار المشهورين الذين تخشى الدولة على نفسها من أقوالهم !!

أما الدعوة الخاصة والإفتاء في المسائل الدقيقة فتكون لعلماء الدين الكبار الذين شهد لهم العلماء بالعلم إذ ليس من قال الناس أنه عالم صار عالما إذ أن العامة لا يحكمون على العلماء إنما الذي يحكم على العلماء أكابرهم لكن الآفة أن من تجمع حوله بعض العامة يظن نفسه عالما بغض النظر عن قول العلماء فيه ، وهذا لا يحدث إلا في مجال الدعوة – وهو أخطر مجال – فإن من يحصل على أي شهادة علمية إنما الذي يمنحه إياها هم أساتذته ومعلموه وليس طلابه ومريدوه . و مع تعدد أمور الحياة و كثرة المستحدثات فإن أمر الفتوى لا يجب أن يترك حتى لآحاد العلماء إنما يجب ألا يناط بالأمور الدقيقة المؤثرة في حياة الناس إلا المجالس العلمية المتخصصة فقضايا مثل : إيداع الأموال في البنوك ، والتأمين على الحياة ، والتبرع بأعضاء الجسم ، والعمليات الفادئية في البلاد المحتلة ضد المدنيين ، وغيرها من الأمور التي يجب أن تدرس من كافة جوانبها ويناقشها كبار العلماء في مجامع للبحوث الإسلامية كالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، ودار الإفتاء ، ويجب أن يتم الاتفاق على ما يفتى به الناس خاصة في مواضيع ذات تأثير بالغ على حياة الفرد والمجتمع وأن يلتزم العلماء بقرار اللجان المختصة، وخيراً فعل المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بجمع فتاوى الأزهر الشريف في مائة عام على اسطوانة ليزر ، ويسر طريقة البحث فيها ، وأنا شخصيّاً أراحتني هذه الفتاوى من الجدل العقيم فما يكاد يبدأ جدل

حول قضية من القضايا الخلافية حتى أسارع بطبع نص فتوى الأزهر الشريف في هذه القضية لحسم الخلاف .

وإذا طبقنا منهج ميزان الحق الذي تحدثنا عنه على منهج النصيين الحرفيين والظاهريين البدو فإننا نجد أنهم يهملون حاجات بعض مكونات الإنسان .

فإذا كان العقل وهو من أعظم نعم الله على الإنسان وهو ما يُميَز به الحق من الباطل والصواب من الخطأ وهو وسيلة المعرفة لا نصيب له عند النصيين الحرفيين فقد أهملوه وحرموه من التفكير والاجتهاد ، كما أهملوا حاسة الذوق القلبية التي تجعل الإنسان يستمتع بالفنون الراقية المهذبة للنفس والمحركة للعواطف النبيلة كالشعر الذي قال النبي فيه في الحديث الصحيح المتفق عليه " إن من البيان لسحرا " وجعله يخلع برده على كعب ابن زهير عندما أنشده قصيدته "بانت سعاد" فعفا عنه وكان قد أهدر دمه بل من فرط إعجابه خلع عليه برده . ذلك الشعر الذي قال عنه الرسول " إنَّ من الشِّعرِ حكمةً وإنَّ من البيانِ سحرًا "
[صححه الألباني]

أو كالغناء غير الفاحش ولا البذيء الذي يروح عن النفس ، ويحرك المشاعر النبيلة خاصة في المناسبات السعيدة فقد سمع النبي الغناء وأمر عائشة بأن تكون هديتها لعروس ذات قرابة لها مغنيا يغنى لها . وكذلك سمع بعض الصحابة الغناء ولم يروا فيه بأسا خاصة في المناسبات السعيدة كالأعياد والزواج .

لكن ليس كل غناء مباح فالغناء المباح له شروط بيناها في غير هذا الموضع .

كما أنهم بالنسبة للروح التي غذاؤها معرفة الله وعبادته والأنس به فإنهم حولوا الكلام عن العقيدة إلى حروب كلامية وتحدثوا في موضوعات ما تحدث فيها السلف كحديثهم المستفيض في الذات والصفات لدرجة أنهم ألفوا فيها كتبا مستقلة ، وبدلاً من غرس الإيمان في قلوب الناس شغلوهم بهذه الأبحاث الكلامية التي لا طائل من ورائها إلا إضاعة الوقت وإضعاف الجهد ، وتمزيق الأمة .

أما بالنسبة للعبادة فإن منهج النصيين الحرفيين يركز على التفاصيل الدقيقة الفرعية في أداء العبادة أكثر من تركيزه على الحكمة من هذه العبادة فيركزون مثلاً على هيئة المصلى أكثر من خشوعه في الصلاة، ويتشددوا غاية التشدد في التمسك بحرفية أداء العبادة ، حسب مذهبهم ، وهم ليسوا كذلك فيما يتعلق بثمرة هذه العبادات وهي حسن الخلق في التعامل مع الناس ، وإخلاص العمل في التعامل مع المعاش ، ورقة القلب كثمرة من ثمرات الشعائر التعبدية .

كما أن مفهومهم الضيق للعبادة الذي يقتصر على أركان الإسلام والذكر والدعاء وقراءة القرآن فقط قد أهمل المهمة الثانية للإنسان كخليفة وهو استعمار الأرض.

﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾

[هود : ٦١]

كذلك استبدالهم الحفظ والتكرار بالفقه والتدبر والاعتبار ؛ فركزوا في فهم الدين على الحفظ وترديد مقولات السابقين دون فقه للدين ولا للدنيا فكأني بهم لم تصبهم دعوة النبي ﷺ لابن عباس فقد " دَعا له النبي ﷺ فقال: اللهم فَقِّهْه في الدِين وعَلِّمه التأوِيل " [رواه البخاري]

ولم تصبهم دعوته ﷺ لعلماء أمته " من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين " (متفق عليه)

إن الناظر في تاريخ الأمم والشعوب يجد أن التطور والتقدم والتحضر قرين الاجتهاد والإبداع والحرية المسئولة أما فترات الضعف والتخلف فقرينة التقليد والاتباع وتقديس التراث ، إن المدقق في الحضارة العربية الإسلامية يجد أنها كانت حضارة مبدعة متفردة فعلماء تجتهد و فرسان تجاهد ، وعمال يعملون وفلاحون يزرعون كانت حضارة علم وعمل وهداية قادت العالم ألف سنة وشارك في صنعها علماء الدين إلى جانب غيرهم من علماء العلوم الطبيعية ، الرياضيات ، والفلاسفة، والشعراء .

***

كتب للمؤلف

كتب دينية

١- ميزان الحق بين العلمانية اللا دينية والسلفية اللا أصولية . مكتبة مدبولي

٢- الدين والسياسة والنبوءة . دار الكتاب العربي

٣- المدارس السلفية،جدليَّة النقل والعقل والمصلحة. دار زهور المعرفة والبركة

٤- الفوائد الجمة في تفسير جزء عمَّ . " " " " " " " " " "

٥- عبقرية محمد للعقاد ، مع ضبط وتخريج الأحاديث النبوية ، ومناقشة آراء العقاد الدينية وذكر مفتاح شخصية خير البرية . " " " " " " " " " "

٦- ضبط وتخريج الأحاديث النبوية لكتاب " على هامش السيرة لطه حسين" مع مناقشة أفكار الكاتب واتجاهاته الدينية. " " " " " " " " " "

٧- أخلاق الإسلام وتنمية المجتمع. " " " " " " " " " "

٨- أبو بكر الصديق ، ومنزلة الصديقية دار نوبل للنشر والتوزيع

سلسلة نحو خطاب ديني جديد

١- مناقشة معاصرة لقضايا المرأة المسلمة . دار زهور المعرفة والبركة

٢- في العقيدة والشريعة والأخلاق . " " " " " " " " " "

٣- حوارات مفتوحة مع تلميذتي الصريحة . " " " " " " " " " "

سلسلة الإسلام وتحديات العصر الحديث

١- الإسلام والعقل الحديث . دار نوبل للنشر والتوزيع

٢- الإسلام والنفس الإنسانية . " " " " " " " " " "

٣- الإسلام والوجدان . " " " " " " " " " "

٤- الإسلام واحتياجات الإنسان الفسيولوجية والاجتماعية . " " " " " " " " " "

٥- الإسلام والحضارة .

٦- الأزهر تاريخ من الوطنية والوسطية . " " " " " " " " " "

٧- مكانة المرأة بين العادات المجحفة والشريعة المنصفة . " " " " " " " " " "

سلسلة فصول من تاريخ مصر المعاصر

١- آخر أيام فاروق وأول أيام الثورة . دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع

٢- العامان المجهولان في تاريخ ثورة يوليو . دار زهور المعرفة والبركة

٣- هزيمة يونيو ٦٧ وتحديد المسئولية " " " " " " " " " " " "

٤- إنجازات عبد الناصر الكبرى من منظور سياسي " " " " " " " " " " " "

٥- نظام عبد الناصر السياسي والاقتصادي والاجتماعي " " " " " " " " " " " "

٦- أمريكا وعبد الناصر من التحالف إلى العداء " " " " " " " " " " " "

سلسلة كتب نحو فهم صحيح للصراع العربي الإسرائيلي

١- الإستراتيجية الصهيونية تجاه العرب ، والمنهج الإلهي لميراث الأرض .

دار هبة النيل العربية

٢- اليهود والصليبيون الجدد ، الدجل الديني والسياسي . دار الإبداع للصحافة والنشر

٣- إسرائيل وحزب الله ولبنان ، الفائز والخاسر ومن دفع الثمن. " " " " " " " " " "

٤- فتح وحماس ، من مقاومة الاحتلال إلى الصراع على السلطة " " " " " " " " ""

٥-اليهود والصهيونية وأوهام الأمة العربية . " " " " " " " " " " " "

كتب عن الثورة

١- متى يثور المصريون ، دراسة في الشخصية المصرية والثورة عبر التاريخ .

دار زهور المعرفة والبركة

٢- دروس من ثورة يوليو لثورة يناير . " " " " " " " " " " " "

كتب عن الحضارة المصريَّة

١- حضارات مصر ونهضاتها . دار زهور المعرفة والبركة

٢- لسنا فراعنة ولا عرباً ولا أورمتوسطين فمن نكون ؟ " " " " " " " " " " " " " " " "

٣- البحث عن شخصية مصر الحقيقية دار نوبل للنشر والتوزيع

المؤلفات الأدبية

١- مهاجرون (قصص قصيرة) دار زهور المعرفة والبركة

٢- الحرف التاسع والعشرون (قصص قصيرة) " " " " " " " " " " " " " "

٣- ليت قومي يعلمون . (قصص قصيرة) " " " " " " " " " " " " " "

٤- القاهرة ، يناير ٢٠١١ (رواية) " " " " " " " " " " " " " " " "

٥- شـــهادات رمــوز ومعـــالم مــصرية حديثــة علـــى بطــولات مــصرية مجيــدة .

(قصص مصورة للنشء والشباب) دار زهور المعرفة والبركة

٦- طرائف ونوادر مدرسين معاصرين . " " " " " " " " " " " " " " " "

مذكرات أديب مغمور (رواية) " " " " " " " " " " " " " " " "

٧- أحلام مواطن متفائل .(سيرة فكرية) " " " " " " " " " " " " " " " "

٨- حكايات جنود في سيناء . (رواية) " " " " " " " " " " " " " " " "

٩- حكاية لكل امرأة وبنت . (رواية) " " " " " " " " " " " " " " " "

كتب أطفال

* سلسلة أصدقاء البيئة (٨ قصص) دار زهور المعرفة والبركة

* السلسلة النفيسة في ثورات مصر الحديثة (٥ قصص) " " " " " " " " " " " " " "

* سلسلة لغز الحضارة المصرية القديمة (٨ قصص) " " " " " " " " " " " " " "

* سلسلة منجزات الحضارة المصرية القديمة (٦ قصص) " " " " " " " " " " " " " "

توجد كتب المؤلف في مكتبات أفضل ٤٠ جامعة على مستوى في العالم، ومعظم الجامعات العربية، ومعظم مدارس وجامعات مصر، وكتبت عن مؤلفاته عديد من الصحف العربية، والأجنبية والمواقع الالكترونية .

استضافته قناة النيل الثقافية في برنامج " الرفيق " لعرض كتابه "متى يثور المصريون".

-قررت دولة قطر قصة " وردة المدرسة " على الصف الثالث الابتدائي .

- نشرت له جريدة الأهرام العربي سلسلة مقالات عرض فيها أربع كتب :

١- أبو وبكر الصديق ومنزلة الصديقية .

٢- أخلاق الإسلام وتنمية المجتمع .

٣- عبقرية محمد للعقاد .

٤- مناقشة معاصرة لقضايا المرأة المسلمة .

التليفون المحمول: ٠١٢٢٦٤٠٦٤٨٩ -٠١١٤٢٠٤٣٩٤٠

البريد الالكتروني: yuness2005@hotmail.com

موقع المؤلف على الإنترنت www.albab.hooxs.com

***

محتوى الكتاب

الموضــوع الصفحة

سمات شخصية المتطرف

مناقشة آراء المتنطعين

الموضــوع	الصفحة

***